مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين وسلام على أصحابه البررة المنتجبين واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين الى قيام يوم الدين.

أما بعد: لايخفى أننا لازلنا بحاجة الى تكريس الجهود ومضاعفتها نحو نشر المفاهيم الأخلاقية والتربوية وترسيخ المفاهيم الإيمانية التي تضمنتها رسالة الإسلام لبناء الفرد بناء فعليا حقيقيا ليكون انطلاقة سليمة لبناء ذلك الكيان الإنساني الشامخ الذي ماهو إلاّ اللبنة الأولى لبناء مجتمع إسلامي راسخ البنيان، عتيد المراسي.

لذا ومساهمة في ذلك جاءت برامج إذاعة الكفيل صوت المرأة المسلمة كسبيل للوصول الى ذلك وقد أخذت هذه البرامج طريقها الى أسماع الكثيرين عبر أثيرها وعبر شبكة الانترنت العالمية صوتا ولأجل تعميم الفائدة إرتأت الإذاعة إيصال برامجها كتابيا الى أيدي الذين لم يسعفهم الوقت لسماعها وذلك بطباعة بعض من برامجها وإصدارها ككراس.

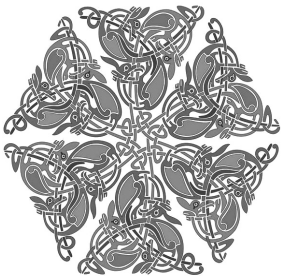

الحلقة الأولى

من

سبيل الزاهدين

الحسد

يقول الإمام عليه السلام في دعائه: «**ومن حسد أهل البغي المودّة**».

إنّ الحسد أصله من القلب، ولكن لا يحاسب عليه الإنسان إلا إذا انعكس على الجوارح، ولذلك ورد في حديث الرفع المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**رفع عن أُمّتي تسع الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطروا اليه والحسد والطيرة والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة ولا لسان**» .

وأمّا قوله عليه السلام : «**أهل البغي**» فيعني من ديدنهم البغي، كما تقدّم في قوله عليه السلام عن أهل الشنآن.

وأمّا المودّة فهي المحبّة الظاهرة، فقد يحبّ الإنسان شخصاً ولكنّه لا يظهر هذا الحبّ فهذا لا يسمّى مودّة، أمّا إذا كان يحبّه ومع ذلك يظهر ذلك الحبّ فهذه هي المودّة.

وفي هذا الدعاء يطلب الإمام من الله تعالى أن يخلصّه ليس من حسد الباغي العادي فقط بل من حسد أهل البغي أي من بنى أمره على

البغي، ويبدل حسده ليس إلى محبّة فقط بل إلى مودّة أيضاً وهي الحبّ مع إظهاره. .

كيف نتعامل مع أهل البغي؟

لا يكفي الدعاء وحده بل لابدّ للمؤمن أن يسعى بعمله لتجنّب أهل البغي وتبديل حسدهم إلى مودّة، فإنّ الإمام عليه السلام يطلب من الله تعالى أن يخلّصه من السلبيات الموجودة في المجتمع ويلفت نظر المؤمنين إليها أيضاً.

أمّا كيف نتصرّف مع أهل البغي، فلنا في علمائنا قدوة، ومنهم – على سبيل المثال – نصير الدين الطوسي رحمه الله، فقد ذكر في أحواله صاحب «الكنى والألقاب» أنّ شخصاً نكرة كتب له رسالة وجّه له فيها سبّاً لاذعاً، كما تجاوز عليه بقوله «ياكذا»، فأجابه الشيخ وكان عالماً ووزيراً مقتدراً:

وأمّا قولك أنّني كذا فهذا غير صحيح لأنّ الكذا يمشي على أربع وأنا أمشي على اثنين، والكذا فصله «نابح» وأنا فصلي «ناطق»!

لنراجع أنفسنا ونرى حقّاً هل نستطيع أن نتحلّى بمثل هذا الصبر والخُلُق الرفيع الذي تحلّى به هذا الشخص العالم الذي لم يكن عاجزاً – لا من حيث قوّة القلم والبيان ولا من حيث السلطة – أن يقابله بأشدّ من فعلته! ولكنّه تلميذ مدرسة أهل البيت عليهم السلام الذي تعلّم منهم الصبر والأخلاق الرفيعة.

فلنقتدِ بأئمّتنا وعلمائنا، لأنّ ردّ الصاع بصاعين سهل إذا كانت لدى الشخص المقدرة ولكنّ الصبر أصعب وأجدر، ولو كان الطوسي أمر بحبس الرجل أو ضربه – وكان قادراً على ذلك – لما كان موقفه ذاك جديراً بالتأسّي؟!

لا شكّ أنّ بلوغ هذه الدرجة العالية يحتاج إلى رياضة نفسية قد تستغرق سنوات.

لذا علينا بالمواظبة على قراءة هذه الأدعية بإمعان وتدقيق، والسعي للعمل بما توجّهنا إليه، والطلب من الله تعالى أن يوفّقنا في ذلك.

ذكرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام – وهو المعصوم – يطلب من الله تعالى حاجات، ويعلّمنا أيضاً – نحن المسلمين – كيف ندعو الله تعالى

ونطلبها، ومن هذه الحاجات ما هي دنيوية، ومنها ما هي أُخروية، إذ الدنيا والآخرة عالمان متشابكان كتشابك أصابع اليدين، فلا ينال الإنسان الجنّة إلا بعمله في هذه الحياة الدنيا.

إنّ الإمام السجّاد عليه السلام يسأل الله تعالى أن ينجّيه من أُمور قد حدّدها، وأن يبدلها إلى أضدادها أو نقائضها. فالإمام عليه السلام لم يطلب من ربّه الكريم أن ينجّيه من البغضة والحسد والظنّة والعداوة فقط، وإنّما يرتجي منه سبحانه أن يبدّل تلك الخصال عند أهلها إلى نقائضها وأضدادها.

إبدال حسد أهل البغي إلى مودّة

يقول الإمام عليه السلام: «**ومن حسد أهل البغي المودّة**».

إن من أهمّ الأمور التي يطلبها الإمام عليه السلام من ربّه تغيير حالة حاسده وإبدال حسده إلى مودّة، فالحاسد بطبيعته يتربّص الدوائر بمحسوده ويتحيّن له الفرص للبغي وإلحاق شتّى أنواع الأذى والمشاكل به، وهذا هو طبع الحسود، بيد أنّ التأمّل في عبارات الدعاء يُظهر أنّ الإمام عليه السلام لم يكتفِ في دعائه وطلبه من الله تعالى طلب إبدال هذه الحالات السلبية إلى نقائضها بل هو عليه السلام يطلب من الله تعالى في دعائه أن يبدّل أشدّ هذه الحالات سوءاً إلى أرفع ما يقابلها.إنّ الإمام لم يقل: «من حسد

الحاسدين» بل قال: «**من حسد أهل البغي**»، لأنّ الشخص قد يكون حاسداً يحبّ وصول الأذى للمحسود لأن هذا ديدنه، وقد يكون باغياً أي ظالماً، وهذا أسوأ بالطبع، لأنّه يصدر منه الإيذاء وإن لم يكن حاسداً، فكيف إذا اشتمل على الحسد مع البغي؟ لاشكّ أنّ إيذاءه سيتضاعف.

وكان يمكن للإمام عليه السلام أن يقول: «ومن حسد الباغين» ولكنّه عدل إلى عبارة أهل البغي لأنّ الباغي قد يصدق حتّى على من صدر منه البغي مرّة أو مرّتين، أمّا أهل البغي فهم الذين ديدنهم الظلم وشيمتهم البغي وعادتهم إيذاء الآخرين. وهذا معناه أنّ الإمام يطلب من الله تعالى أن يعالج له أصعب الحالات السلبية التي قد يبتلى بها الناس عادة.

ويمكن تصوير القضية بنحو آخر فنقول:

إنّ من طبيعة الحاسد تمنّي زوال نعمة المحسود دونما سبب وإن لم يكن هذا الحاسد ظالماً بل كان شخصاً عادياً، فكيف إذا كان مع حسده باغياً؟ بل كيف إذا كان من أهل البغي «أي ديدنه البغي»؟

حقّاً سيكون الظلم مضاعفاً في هذه الحالة، والإمام عليه السلام يطلب من الله تعالى أن يبدّل هذه الحالة التي تمثّل أدنى درجات السلبية إلى

المودّة وهي أعلى درجات الحبّ والتي تعتبر الخصلة المناقضة لحسد أهل البغي.

فلقد ذكرنا في بداية الحلقة أنّ المودّة هي المحبّة مع إظهارها، ممّا يعني أنّ الإمام عليه السلام يطمح في الحصول على المزيد من الله تعالى، فهو لايطلب منه سبحانه كفّ حسد الحاسدين سيّما أهل البغي منهم وحسب، بل يطلب تحويل حسدهم إلى محبّة تكون ظاهرة عليهم.

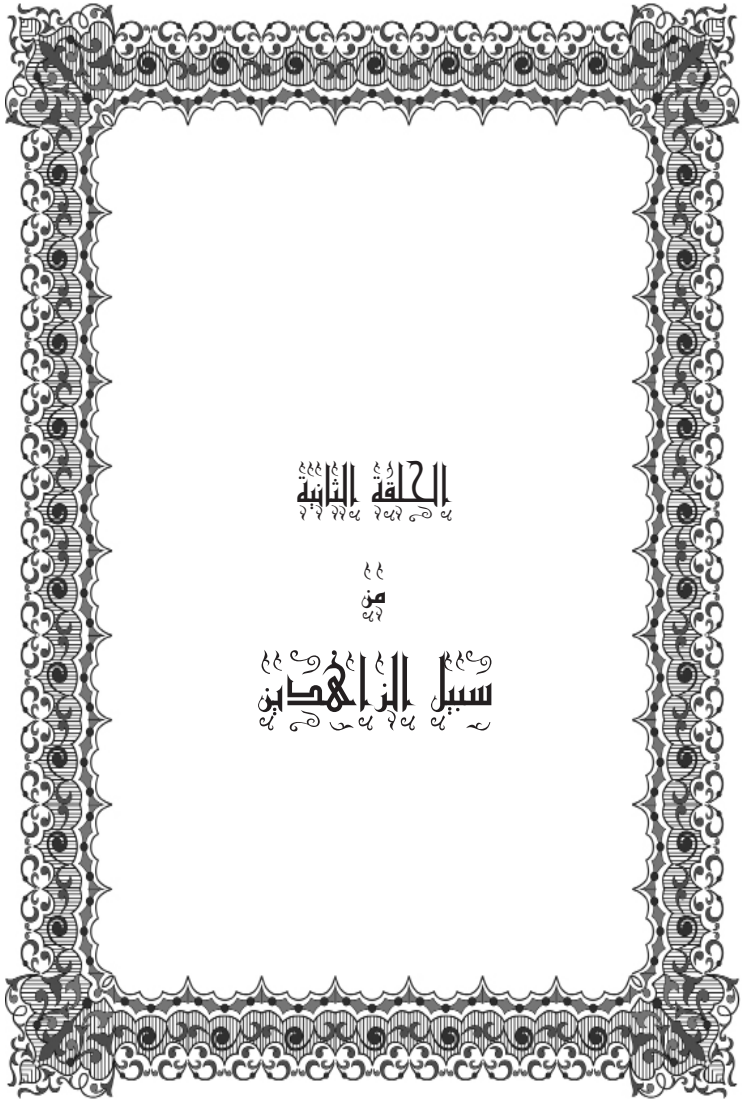

الحلقة الثانية

من

سبيل الزاهدين

إبدال ظنّة أهل الصلاح إلى ثقة

يقول الإمام السجّاد عليه السلام بعد ذلك: «**ومن ظنّة أهل الصلاح الثقة**» والظنّة- بكسر الظاء -: التهمة. وههنا لابدّ من وقفة أيضاً، فنقول: تارةً يتّهم الإنسان شخصٌ فاسق ويظن به سوءاً فهذه حالة عادية، لأنّ من طبيعة الفسّاق أن يظنّوا بالناس السوء، وتارةً يكون المتّهِم له والظانّ به سوءاً هم أُناس عاديون أي ليسوا بصلحاء ولا فسّاقاً، وهذه الحالة قد تهون أيضاً، ولكن ماذا لو أنّ الصالحين كانوا هم الذين يتّهمون الإنسان ويظنّون به سوءاً؟ لا شكّ أنّ الأمر يختلف في هذه الحالة. فكيف إذا كان المتّهِم للإنسان من وصفهم الإمام عليه السلام بأنّهم أهل الصلاح، أي شيمتهم الصلاح؟ فهاهنا الطامة الكبرى، وذلك لأنّ أهل الصلاح لا يتّهمون أحداً جزافاً، ولا يتسرّعون في إصدار الأحكام بلا رويّة بل يحتاطون في أُمورهم كثيراً ويحملون أفعال الناس على محامل حسنة ما استطاعوا، لتقيّدهم بالشرع وأحكامه، ومراعاتهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «**احمل أخاك المؤمن على سبعين محملاً من الخير**».

وكما أنّهم لا يتّهمون أحداً سراعاً، كذلك لا يثقون بأحد جزافاً، بل إنّهم يرجعون إلى مقاييسهم الشرعية والأخلاقية، ولهذا لو اتّهم أهل

الصلاح أحداً ما فلابدّ أن يكون هناك سبب وراء ذلك!

ومن هنا كان لزاماً علينا - في موارد كثيرة - أن لا نكلّف أنفسنا عناء التحقيق في حال من عرّفه أهل الصلاح بالمدح أو القدح.

بعد هذه المقدّمة نقول: إنّ الإمام عليه السلام لا يكتفي بطلبه من الله تعالى أن يدفع عنه ظنون الآخرين وتهمهم فحسب بل يطلب إبدالها إلى الثقة وعدم الاتهام، كما لا يتوقّف في طلبه عند مجرد طلب تبديل هذه الظنون والاتّهامات من أيّ شخص صدرت بل يطلب تبديل تهمة من يُحسَب لتهمهم وظنونهم حساب، وهم الصالحون، بل أهل الصلاح، أي الذين دأبوا على الصلاح حتّى عُرفوا به.

كما نلاحظ أيضاً وجود الفاصلة الكبيرة والبون الشاسع بين الحالتين التي يطلب فيها الإمام من الله تعالى إبدالهما بما هو أحسن.

إبدال عداوة الأدنين إلى الولاية:ـ

فإذا انتقلنا إلى الجملة الثالثة من هذا المقطع من الدعاء نرى الإمام عليه السلام يعلّمنا أيضاً أن ندعو الله تعالى ونطلب منه أحسن الطلبات وأعلاها بعد التخلّص من أسوأ الحالات وأدناها فيقول: «**ومن عداوة**

الأدنين الولاية» أي أبدلني من عداوة هؤلاء القوم ولاية ومحبّة.

فلفظة «الأدنين» جمع «الأدنى» وهو اسم التفضيل من الدناءة والدنوّ، ذلك أنّ الشخص قد يكون قريباً ظرفيّاً فيقال عنه دانٍ، ويجمع على «أدنين»، وقد يكون إنساناً سيّئاً أي فيه دناءة وحقارة فيقال عنه دنيء، وربما لوحظ المعنيان في كلمة «دنيا»، لأنّ الدنيا تلي الآخرة، فهي أقرب بالنسبة لنا من الآخرة، فيقال إنّها دنيا أي دانية قريبة بالنسبة لنا، وإنّها دنيئة المنزلة أيضاً قياساً إلى سموّ الآخرة ورفعتها، فمن هذا الباب سمّيت «دنيا».

ولكن الإمام عليه السلام يقصد المعنى الثاني في قوله «أدنين»، لأنّه سيشير إلى هذا المعنى في قوله: «**ومن خذلان الأقربين**» بعد ذلك. ثمّ إنّ التفضيل – في اسم التفضيل – يكون في اللغة بواسطة أحد ثلاثة أنحاء هي حرف الجر «من» و«الإضافة» و «أل» التعريف، ولكنّه يكون نسبياً في الحالتين الأوليين، ومطلقاً عن كلّ قيد في الحالة الثالثة. فلو قلت: «زيد أدنى من عمرو» فهذا لا يعني بالضرورة أنّه الأدنى مطلقاً فقد يكون الأرفع بالنسبة لغيره ولكنّه أدنى من عمروٍ خاصّة، وهكذا إذا قلنا: «زيد أدنى ثقيف» مثلاً فإنّه لا يعني أيضاً أن يكون الأدنى مطلقاً

وإن توسّعت نسبة دناءته، حتّى بلغت تقاس بقوم، ولكنّه قد لا يكون كذلك بالنسبة لقوم آخرين.

أمّا إذا قلنا: «الأدنى» كما في عبارة الدعاء فإنّ التفضيل هنا يفيد الإطلاق، أي إنّ زيداً – مثلاً – أدنى من كلّ ما يُتصوّر، لأنّه غير مقيّد لا بشخص ولا بقوم أو مكان أو زمان أو غير ذلك.

إذا اتّضح هذا نقول: إنّ الإمام عليه السلام في هذه الجملة أيضاً لم يكتفِ بطلبه من الله تعالى أن يخلّصه من العداوة فقط، بل يطلب تبديلها إلى محبّة بل قمّة المحبّة وهي الولاية كما سنبيّن لاحقاً، كما أنّ الإمام عليه السلام لم يكتفِ بطلب ذلك الاستبدال على المستويات العادية بل ترقّى إلى طلب إبدال أشدّ الحالات سوءاً بأفضل الحالات حسناً.

وبيان ذلك: إذا كان الشخص الدنيء يبحث عن المشاكل عادة ويسبّب بطبعه متاعباً للآخرين، لذا فالإمام السجّاد عليه السلام يعلّمنا كيف نطلب من الله تعالى أن يبدّل هذه العداوة – التي هي ليست عداوة كلّ أحد ولا عداوة الداني فقط. ولا حتّى عداوة من هو أدنى بالنسبة لقومه بل عداوة الأدنى مطلقاً – إلى محبّة بل إلى ولاية.

معنى الولاية في الدعاء:ـ

إنّ الولاية غير الصداقة والصداقة غير الصحبة، فتارةً يكون الشخص صاحباً لك أو رفيقاً وزميلاً وتارةً يكون صديقاً، والصداقة أعلى درجة، لأنّ الصديق من صادقك أي صدقك، ولا يشترط في الصاحب والرفيق ذلك، عن سعيد بن الحسن قال: قال أبو جعفر عليه السلام: أيجيء أحدكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه؟ فقلت: ما أعرف ذلك فينا. فقال أبو جعفر عليه السلام: فلا شيء إذاً. قلت: فالهلاك إذاً. فقال: إن القوم لم يعطوا أحلامهم بعد .

وأعلى من الصداقة المودّة، وأعلى منها الولاية – بفتح الواو – لأنّ الولاية ليست صرف المحبّة حسب بل المحبّة المقرونة بالصداقة والمودّة، وإظهارها مع الانصياع التامّ لمن تتولاّه.

أمّا الولاية – بالكسر – فهي الحكومة، على أي مستوى كان، فإذا قبلتَ ولاية أحد عليك فهذا معناه أنّك قبلت أن يكون رئيساً أو قائداً لك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾[1].

(١) المائدة/ ٥٦

الخلاصة: إنّ الإمام عليه السلام في هذا المقطع يطلب من الله تعالى أن يبدّل عداوة الأدنين – وهي أشدّ العداوة – إلى الولاية – وهي أشدّ المحبّة –

انظروا كيف يدعو الإمام؟ حقّاً لولا الأدعية الواردة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام لما توصّل فكرنا إلى مثل هذه النكات الدقيقة. ولو كنّا ندعو بعبارات من عند أنفسنا لقلنا مثلاً: يا إلهنا إذا نصب الآخرون العداء لنا فحوّل بقدرتك عداءهم مودّة، وإذا كان هناك من يتربّص بنا فغيّر بحكمتك فكره و... . ولكن الإمام عليه السلام يطلب من الله تعالى ويسأله ويعلّمنا أن نسأله هذه المطالب الدقيقة.

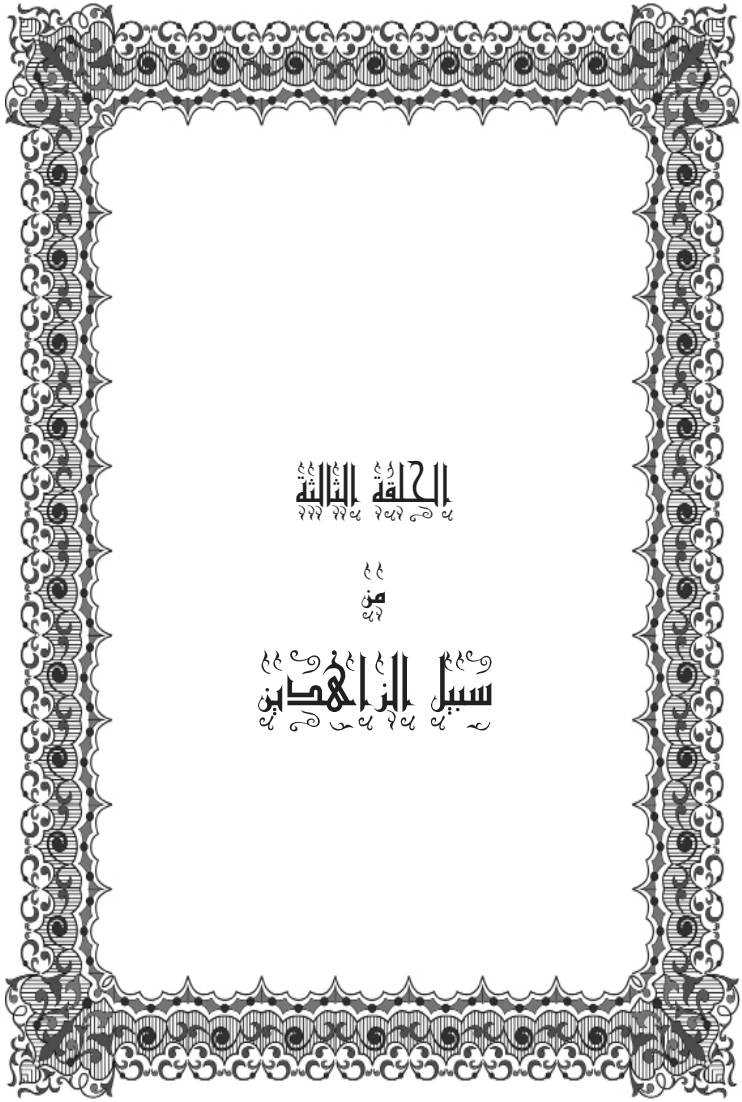

الحلقة الثالثة

من

سبيل الزاهدين

الدعاء دعوة للعمل

إنّ هذه الأدعية المروية عن الأئمّة المعصومين صلوات الله عليهم ليست دعوة منهم لترك الأُمور على الله تعالى يعالجها بطريقة إعجازية دون أن يحرّك الداعي نفسه باتّجاه تحقيق مطالبه، بل الأمر على العكس من ذلك، فإنّ هذه الأدعية تنهض بدور بيان السلبيات الموجودة في المجتمع لكي يعيها المتديّنون ويسعوا لتلافيها.

أذكر فيما يلي مسألة تنفعنا في إيضاح الفكرة، وهي: أنّ هناك بحثاً ونقاشاً بين العلماء في قضية الأوامر غير الاختيارية التي يكلّف الله بها عباده وكيفية توجيهها، ومثال تلك الأوامر قول الله تعالى في كتابه المجيد خطاباً عن نبيّه الكريم: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[1]، فإنّ مفهوم هذه الآية هو أنّ الله تعالى يأمر المسلمين بمودّة آل البيت النبوي الطاهر، والسؤال هو: إذا كانت المودّة تعني المحبّة مع إظهارها، وإذا كان الإظهار أمراً اختيارياً، فإنّ المحبّة نفسها ليست فعلاً اختيارياً بل هي مناط قلبيّ، لأنّك إذا كنت لا تحبّ أحداً فلا معنى لأن تؤمر بمودّته – أي إظهار محبّته – ! إذاً فما هو معنى ووجه هذا الأمر مع

(١) الشورى/ ٢٣

أنّ التكاليف لا تتعلّق بالأُمور غير الاختيارية؟

يجيب العلماء عن هذا السؤال بقولهم: إذا كان المسبّب غير اختياريّ وكان السبب اختيارياً، فإنّ الأمر بالمسبَّب يعني الأمر بالسبب، والمودّة – في المقام – كذلك فإنّها وإن كانت أمراً غير اختياري لأنّ الإنسان إذا رأى خيراً من أحد تعلّق به قلبه دون اختياره، كما هو الحال في البغض أيضاً فإنّ الإنسان إذا رأى شرّاً من أحد أبغضه، إلاّ أنّ أسباب الحبّ والبغض اختيارية يمكن أن يتوفّر عليها الإنسان .

فيكون معنى الأمر الإلهي بحبّ أهل البيت عليهم السلام هو العمل بما من شأنه أن يؤدّي بالإنسان إلى حبّهم، كقراءة فضائلهم والاطّلاع على سيرهم العطرة، لأنّ الإنسان إذا عرف أهل البيت عليهم السلام فإنّه لا يمكنه أن لا يحبّهم إلاّ أن يكون سقيم الفطرة فينكر ذلك رغم وقوفه على عظمتهم، كما قال الله تعالى واصفاً منكري آياته: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ**﴾[1] فإنهّم متيقّنون من صحّتها في قلوبهم وهذا أمر غير اختياريّ، ولكنّهم لا يظهرون ذلك جحوداً.

ويمكن أن نضرب مثلاً آخر كما في خصوص الهلال في شهر

(١) النمل/ ١٤

رمضان المبارك، فإنّ المكلّف مأمور بأن يصوم لرؤيته ويفطر لرؤيته، لذلك إمّا أن يستهلّ بنفسه أو يسأل مرجع تقليده حتّى يحصل له اليقين أو الظنّ بأنّ الهلال قد هلّ فيعمل بوظيفته، فاليقين أو الظنّ الحاصل ليس أمراً اختيارياً ولكن الأسباب التي أدّت إليه اختيارية، ولذلك يتوجّه إليها الأمر.

وان قضية الدعاء والطلب من الله تعالى تشبه المثالين اللذين تقدّما- أي الأمر بالحبّ في المثال الأول، والظنّ أو اليقين في المثال الثاني - فكما أنّ الأمر بهما يعني الأمر بتهيئة مقدّماتهما، فكذلك عندما يعلّمنا المعصومون أن نطلب أُموراً من الله تعالى فإنّ في ذلك دعوة لنا لكي نعمل في ذلك الاتّجاه، وإلاّ لا معنى لأن تطلب من الله شيئاً وأنت تعمل على خلافه لأنك بذلك تحول دون تحقيقه، وليس معنى الدعاء أن يحقّق الله لك المطالب كلّها بطريقة إعجازية، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾[1] فعلى المرء أن يسعى لتحقيق الأُمور التي يحبّها وإلى جنبه يطلب من الله تعالى أن يعينه عليها، لأنّ الدنيا دار عمل وليس دار دعاء فقط، فالدعاء ركن كما جاء في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ**

(١) النجم/ ٣٩

بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[1] والعمل ركن آخر. فعندما يدعو الإنسان ربّه أن يجنّبه عداوة الأدنين، فعليه أيضاً أن يتجنّب كلّ ما من شأنه أن يثير تلك العداوة. ففي المجتمع عادة يوجد أُناس دنيئون ديدنهم إيذاء الآخرين، فعلى العاقل أن لا يجعل نفسه عرضة لإيذائهم، ولا يعمل ما من شأنه أن يثير عداوتهم.

نُقل عن شخص أنّه كتب رسالة جوابية لشخص دنيء ضمّنها عبارة تغيظه، فكانت النتيجة أن ألحق به ذلك الدنيء أضراراً كبيرة، وعندما سئل الشخص: لماذا كتبت تلك العبارة؟ أجاب: أردت أن أُغيظه لأنّي كنت أعرف أنّه يتأذّى منها كثيراً فتعمّدت إيذاءه!فمثل هذا الشخص لم يعمل ما من شأنه أن يجنّبه عداوة الأدنين.

إذن مفهوم الدعاء في قول الإمام عليه السلام: «**وأبدلني من عداوة الأدنين الولاية**» يُظهر – إضافة إلى عنصر الطلب من الله تعالى – وجوب أن يضمّ إليه العمل على تجنّب الخصلة السيئة من قبل الداعي نفسه. وهكذا الأمر بالنسبة لقوله عليه السلام: «**ومن ظنّة أهل الصلاح الثقة**» فإنّ الأحاديث الشريفة وتعاليم النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين من آله عليهم السلام تدعو الإنسان

(١) الفرقان/ ٧٧

المسلم وتحثّه للعمل على اتّقاء مواضع التّهم عامّة فكيف بظنّة أهل الصلاح!

فقد روي أنّ رسول اللهﷺ كان مع إحدى نسائه، فمرّ به رجل فدعاهﷺ، فجاء، فقال: يا فلان هذه زوجتي فلانة. فقال: يارسول الله من كنت أظنّ به فلم أكن أظنّ بك. فقال رسول اللهﷺ: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم**».

ربما لم يكن هذا الشخص الرائي متّهِماً رسول اللهﷺ ولكنّ الرسولﷺ أراد أن يعلّمه ويعلّمنا كيف نتّقي مواضع التّهم، وربما كان من المنافقين الذين يتربّصون بالنبي فيتّخذه سلاحاً ضدّهﷺ، فقطع النبيﷺ الطريق بذلك.

إذن لا يكفي للمرء أن يقول «اللهمّ جنّبني مواضع التّهم» أو «**أبدلني من ظنّة أهل الصلاح**»، وهو لا يتّقي مواضع التّهم، بل عليه أن يسعى بعمله لتجنّب توجّه التّهمة إليه من أبسط الناس، فكيف بتهمة أهل الصلاح الذين لا يتّهمون أحداً جزافاً، وإذا اتّهموا فإنّ تهمتهم لا يقدر على إزالتها ومسحها إلاّ الله، وهنا لا يحلّ مشكلة الإنسان إلاّ

الدعاء والتضرّع إلى الله تعالى.وهذا يعني أنّ على الإنسان أن يحاول ما أمكنه تجنّب كلّ ما من شأنه أن يسبّب تهمة أهل الصلاح له، وإذا ما صدر منه ما يجعل أهل الصلاح يظنّون به يطلب من الله تعالى أن يبدّل ذلك الظنّ إلى ثقة بحوله وقوّته.

إنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام هم خيرة أهل الصلاح بل أئمّتهم وقادتهم وعظماؤهم، فلو أُطلقت هذه الكلمة «أهل الصلاح» فالمصداق الحقيقي والأول لها والأوْلى بها هم عليهم السلام، فما أعظم مَن يكسب ثقة الإمام المعصوم عليه السلام ؟ ومن الذين حازوا هذا الشرف عائلة كبيرة من الأشعريين عاصروا الإمام السجّاد أو الباقر عليهما السلام ما حتّى صاحب الأمر عجّل الله تعالى فرجه الشريف، والعشرات منهم كانوا من أصحاب الأئمّة والعديد منهم جيّدون بل جيّدون جدّاً، منهم زكريا بن آدم المدفون في المقبرة القريبة من مرقد السيّدة فاطمة المعصومة عليها السلام .. عبّر عنه الإمام المعصوم عليه السلام بقوله المأمون على الدين والدنيا. فما أعظم مقام هذا الشخص حقّاً؟! ففرق بين أن يقول هذه الكلمة شخص عادي بحقّ آخر وبين أن تصدر من إمام معصوم يعرف خفايا الأمور وظواهرها، ونحن نعتقد استناداً إلى الروايات أنّ الإمام المعصوم عليه السلام هو نفس رسول

الله ﷺ باستثناء النبوّة، قال تعالى: ﴿**وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ**﴾[1]. صحيح أنّ درجاتهم تختلف ولكنّهم نور واحد ومن طينة واحدة، لا يتخلّف عن ذلك أيّ منهم. فحينما ينعت الإمام زكريا بن إبراهيم بأنّه مأمون على الدين والدنيا أو يصف «العمري» وابنه بأنّهما ثقتان فإنّه يريد التصريح بنزاهتهم ووثاقتهم، وهذه مرتبة عظيمة.

(١) آل عمران/ ٦١

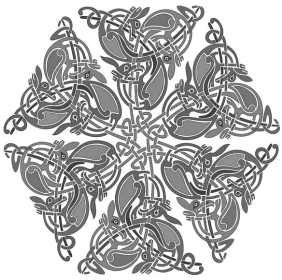

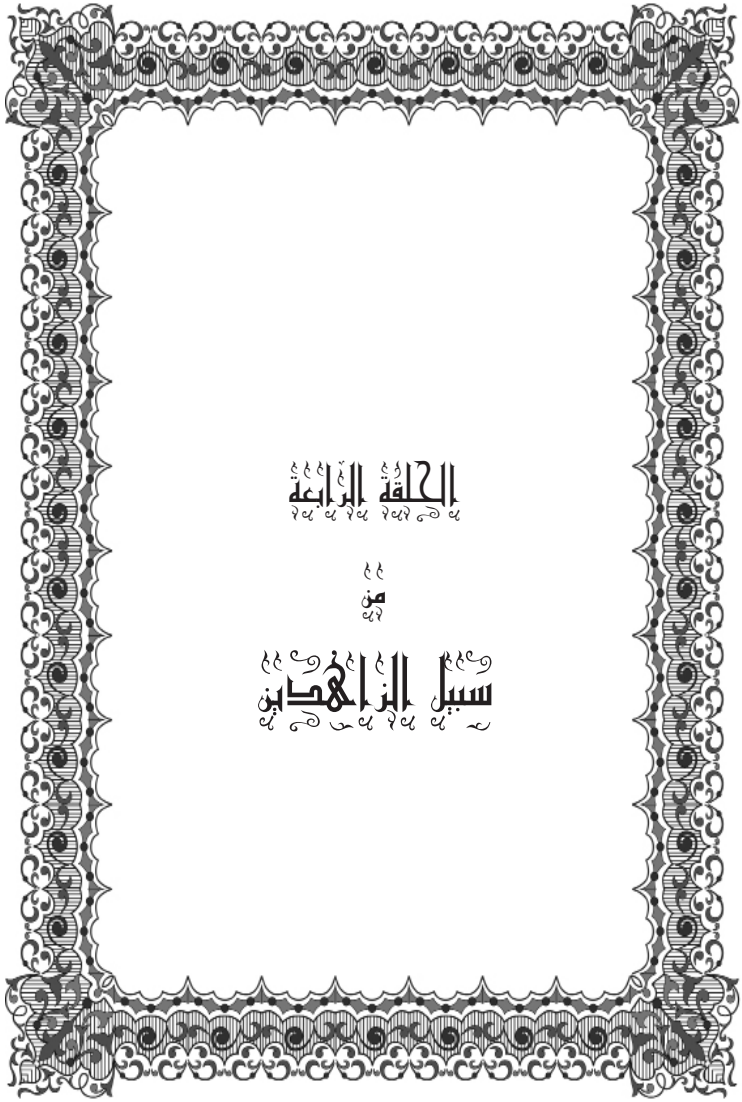

الحلقة الرابعة

من

سبيل الزاهدين

التزكية

إنّ تزكية المعصوم لشخص تُوجب الإطمئنان الكامل به وبعظمة منزلته.

وعلى أيّة حال، فإنّ بإمكان الإنسان أن يكسب ثقة أهل البيت عليهم السلام حتّى في هذا الزمن، فهذا ليس بالمستحيل ولا بالصعب جدّاً، ولعلّه في هذا الزمان أسهل من زمن زكريا بن آدم، لا أقول إنّه ليس صعباً أبداً، ولكنّي أُريد القول إنّه ممكن تحقيقه ولكنّه يتطلّب الجدّ والإرادة.

قد يستطيع الإنسان أن يحوز على ثقة الناس العاديين ولكن حصوله على ثقة الإمام المعصوم عليه السلام ليس بتلك السهولة، لأنّ المعصوم عليه السلام يعرف خفايا الإنسان وما يظهره.

المعصومون عليهم السلام يشهدوننا:

يحكى أنّ أحد الأشخاص كان ذا التزام ديني ظاهراً فذهب لزيارة الإمام الرضا عليه السلام لطلب الحوائج منه. وكانت حوائجه كثيرة إلاّ أنّ أيّاً منها لم يتحقّق. يقول الشخص نفسه: ولكنّي قبيل خروجي من الروضة

المباركة طلبت من الإمام عليه السلام أن يبيّن لي منزلتي عنده، وإذا بشخص يناديني بإسمي الحقيقي الذي كنت أُخفيه عن سائر الناس ولا يعرفه إلاّ الخواص جدّاً، فاستغربت من ذلك، ثمّ إنّه أنبأني بأنّ منزلتي ومقامي كذا وكذا .. ويبدو أنّه كان مقاماً بائساً..

ويقال إنّ شخصاً كان في زيارة للإمام الرضا عليه السلام فبدر إلى ذهنه هذا السؤال: إذا كان ردّ السلام واجباً فهل الإمام عليه السلام يردّ جواب كلّ زائر يسلّم عليه منفرداً أم يجيب بجواب واحد للجميع كأن يقول: عليكم السلام جميعاً؟ فظهر له الإمام في عالم المكاشفة وهو يردّ سلام كلّ مسلِّم باستقلال، ومنهم الشخص الذي بدر إلى ذهنه هذا التساؤل. وهذا معناه أنّ الأئمّة يشهدوننا ويعرفون عن كلّ منّا كلّ شيء، فقد روي عنهم عليهم السلام قولهم: نحن صنائع الله .

وبذلك فالأئمة صلوات الله وسلامه عليهم لا يثقون بأحد هكذا اعتباطاً، كما لا يتّهمون أحداً جزافاً لأنّهم أهل الصلاح بل قادة أهل الصلاح، وكما لا يخدع الله عن جنّته فكذلك لا يخدع الإمام المعصوم عليه السلام .

إذن بمقدور كلّ مؤمن أن يحوز على ثقة أهل البيت عليهم السلام، شرط أن لا يقصّر معهم. فمن عرف عظمتهم وقدّم ما في وسعه في سبيلهم، كسب ثقتهم عليهم السلام حتّى يصل إلى مرتبة زكريا بن آدم وأعلى، لأنّ الله سبحانه وتعالى لم يحصر مقاماً ما – غير مقام العصمة – لأحد دون آخر.

فلنسرع لكسب ثقة الإمام المعصوم عليه السلام ولنتنافس في ذلك خاصّة في الأشهر الحرم لأنّ كلّ عمل حسن فيها أفضل منه في غيرها، وكلّ عمل قبيح في غيرها فهو فيها أشدّ قبحاً وجرماً.

تقدّم الحديث سابقا أنّ الإمام السجّاد عليه السلام قد افتتح دعاءه بالصلاة على جدّه محمّد وآله عليهم السلام، إذ ورد أنّ الافتتاح بذلك يعتبر من أسباب إجابة الدعاء من قبل الله تبارك اسمه.

يقول الإمام عليه السلام: «**ومن عقوق ذوي الأرحام المبرّة**». العقوق لغةً من العقّ وهو الشقّ والحفرة الواسعة في الأرض، وأطلق «عاقّ الوالدين» على الولد الذي يؤذي والديه لأنّهما هما اللذان يتركانه بسبب سوء موقفه تجاههما، فالعقوق وإن كان يستعمل في الوالدين عرفاً، كما تستعمل «القطيعة» في الأرحام غالباً، ولكن لا خصوصية لهذا الاستعمال فيهما

– لا في اللغة ولا في القرآن – لأنّ العقّ هو الشقُّ والفصلُ الحاصل بين شيئين، ولذلك ورد في عبارة الإمام عليه السلام في هذا الدعاء: «**ومن عقوق ذوي الأرحام**».

ولعلّ ما يطلق عليه بالعقيقة المتّخذة للمولود إنّما أُخذ مفهومها باعتبار الشقّ الحاصل بسببها بين هذا المولود وبين احتمال تعرّضه للمصائب والبلايا والآفات، فهي لذلك تسمّى بالعقيقة.

إنّ الحالة الغالبة بين الأرحام هي أن يعقّ بعضهم بعضاً، بسبب المشاكل والتوقّعات أو اختلاف الأذواق أو تضارب المصالح الشخصية، فتحصل بينهم هوّة وهذه الهوّة قد تزداد بمرور الزمن، وهذا في الأرحام شيء غير نادر، اللهمّ إلاّ أن يسارع ذوو الأرحام في معالجة ذلك والسعي في إصلاح ذات البين.

والعلاج في العقوق – كما هو في جميع البلايا – له ركنان، الأول: الدعاء، والثاني: السعي. فعلى الإنسان – كما قلنا مراراً – أن يسعى ويدعو، لا أن يدعو دون سعي، أو يسعى دون دعاء.

فالإمام عليه السلام يدعو الله تعالى أن يبدله هذه الحالة التي يبتلى بها

الأرحام عادة – بسبب خطأ ما قد يصدر عن بعضهم عمداً أو سهواً– إلى حالة المعافاة.

من العادات الشائعة التي كان يُعمل بها سابقاً أكثر من الوقت الحاضر هو أن يُعمد إلى دفن الموتى من ذوي الأرحام في مكان واحد أو مقبرة واحدة. ولعلّ السبب أو الحكمة من ذلك – كما ذكره أحد العلماء مازحاً – أن يكون الموتى الأقرباء قريبين من بعضهم البعض، أو لتسنح لهم الفرصة في ممارسة العتاب الذي ربما لم يكونوا يرغبون في إظهاره في الحياة الدنيا...

إنّ الإمام السجّاد عليه السلام يسأل الله تعالى – ونحن ينبغي أن نقتدي به لأنّه إمامنا المفترض الطاعة – أن يبدّل عقوق ذوي أرحامه بالمبرّة، أي: ياربّ لا تجعلني ممّن يعملون ما من شأنه حصول القطيعة. ومعلوم أنّ المبرّة تعني الصلة وهي الطرف النقيض للعقوق تماماً.

ولن يتسنّى ذلك بسهولة ما لم يسع الفرد إلى دفع أو رفع وإزالة المشاكل التي توجب العقوق والشقاق. فلا ينبغي أن نقع في الغفلة أو التغافل عن أولي أرحامنا بداعي سوء الظنّ أو النظر في المصالح المادّية

البحتة، أو تتقطع سبل التواصل معهم بسبب الخجل أو ما أشبه.

وجذوة القول في معنى هذا الطلب هو أن يتوسّل المرء بربّه ليعافيه عن الابتلاء بعقوق ذوي الأرحام، لما فيه من التفكّك الأُسري والاجتماعي، فضلاً عن سخط الله تعالى.

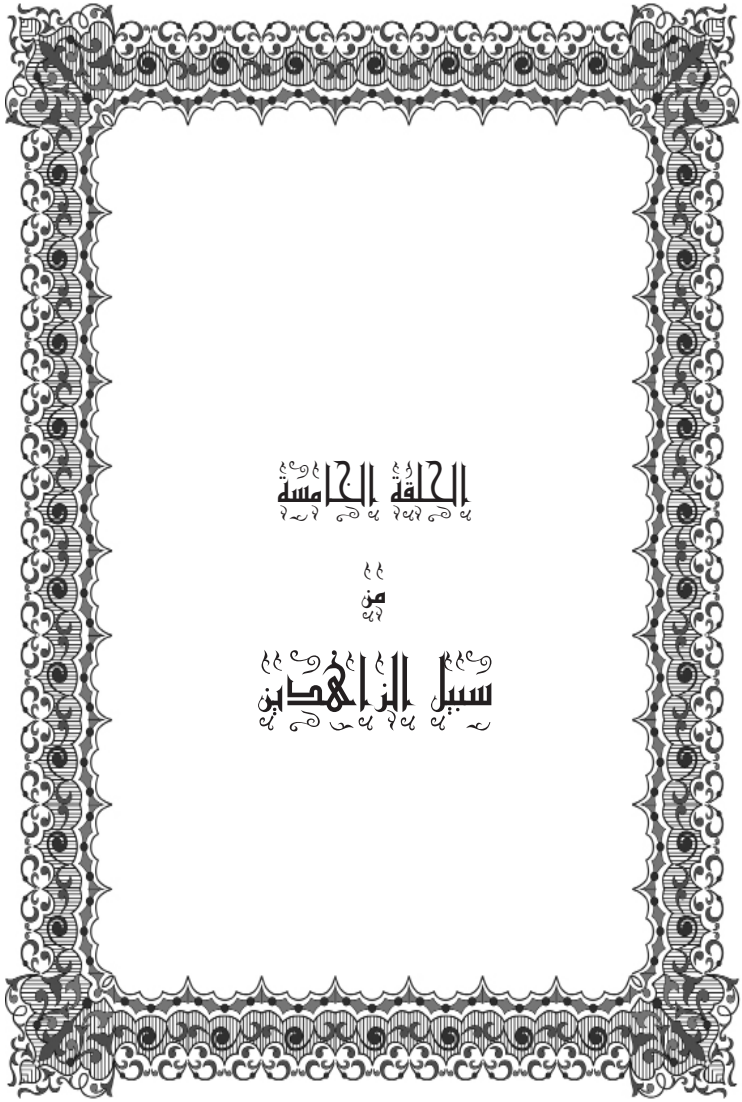

الحلقة الخامسة

من

سبيل الزاهدين

نصرة الأقربين

ثمّ يدعو الإمام عليه السلام بالنصّ التالي: «**ومن خذلان الأقربين النصرة**»، ومعلوم أنّ الأقربين أعمّ اصطلاحاً من أولي الرحم.. وهم مَن يعيش الإنسان معهم بصورة أشمل وأطول، كالجيران فيما بينهم، وزملاء المدرسة ومحيط العمل، فأفراد هذه الأصناف قد يعيش بعضهم مع بعض ويقترب بعضهم من بعض حتّى تصل درجات التأثير المتبادل بينهم حدّاً لا يمكن تمييزه.

وهؤلاء الأقربون قد يكونون أولي رحم، أو غرباء، أي أنّهم قرابة من حيث اللغة وإن افترقوا من حيث السبب.

والمهمّ في الأمر أنّ الخذلان عادة ما يصدر من هؤلاء الأقربين تجاه بعضهم، كأن لا يتساعدوا لحلّ مشكلة أصابت أحدهم، نظراً إلى أنّ من ديدن الأشخاص – غالباً – الاجتماع حول ذي الثروة أو النفوذ، والانفضاض عمّن يفتقر إلى عوامل القوّة.. وهذه هي حالة الدنيا الدنيئة، حيث تصاب المقاييس والموازين الاجتماعية بحالة من البؤس والضعة.. فترى الملتفّين حول الفرد الثري كثيرين، بينما الفقير لا أحد

حوله بإستثناء من هو مثله أو أدون منه.

والإمام عليه السلام يحرّضنا بدعائه هذا على أن نطلب من ربّنا الكريم أن يبدل خذلان الأقربين بمحبّتهم لنا لينصرونا عند حاجتنا إليهم.

إذن، فهنا قضيّتان مهمّتان: قضية الدعاء، وقضية السعي نحو تطبيق أو تفعيل مضمون الدعاء، بمعنى أنّ الفرد كما يحبّ أن ينصره الأقربون عند حاجته إليهم، كذلك عليه أن يضع في حسبانه تقديم النصرة لهم عند حاجتهم إليه، لدفع أكبر نسبة ممكنة من احتمالات الخذلان عند الحاجة، فهو إذا خذل قريبه حين يحتاجه، فليتوقّع خذلان قريبه له كذلك.

ثمّ يقول الإمام عليه السلام: «**ومن حبّ المدارين تصحيح المقة**».

المقّة: المحبّة. وهنا نكتة يجدر الإشارة إليها وهي: لولا تصريح الإمام عليه السلام بهذه الجملة الفائقة البلاغة لما فطن إليها البلغاء والفصحاء، ولما تنبّهوا إلى معناها الدقيق.

لقد حثّ الإسلام على مبدأ المداراة بين الناس وافترض للمدارين

جزاءً موفورا. وقد جاء في الحديث الشريف عن رسول اللهﷺ أنّه قال: من مات مدارياً، مات شهيداً والمتواتر عن السيرة النبوية الشريفة أنّ رسول اللهﷺ وهو سيّد الأخلاق الحميدة، الذي وصفه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] أنّه كان يعامل الناس معاملة هي الغاية في الحكمة والطيبة حتّى ليظنّ كلّ منهم أنّه أحبّ الناس إلى نفس رسول اللهﷺ فكان المصداق الأكمل للمداراة.

فإن كان المرء لا يحبّ أحداً، فلا يلزمه أن يظهر هذا الإحساس له أو يبديه في وجهه.. وهـذا من الأُمـور المستحبّة، حتّى ورد في الحديث النبويّ الشريف أنّ نصف العقل مداراة الرجال فيعاملهم معاملة يتصوّرون أنّه يحبّهم.. وهذا ليس من النفاق في شيء، بل هو من مقتضيات العقل وأُصول الأخلاق الرفيعة، إذ لا شكّ في وجود الاختلاف والتفاوت في الأذواق والأساليب والتوجّهات بين الناس، ولكن ليس من الضروري أن يظهر المرء كلّ ما في قلبه للآخرين، بل من الضروري أن يبدي احترامه لأذواقهم وأساليبهم وتوجّهاتهم وآرائهم، كما يمكنه أن يعكس وجهة نظره ورأيه أو طبيعة ذوقه وما يرتئيه من أُسلوب بالصورة المناسبة والحكيمة، لكي لا يقع الشقاق وتحلّ الفُرقة.

(١) القلم/ ٤

وهذا النصّ من الدعاء الشريف يشير إلى أهميّة طلب المرء من ربّه أن يساعده في تحويل المودّة الظاهرية التي نعبّر عنها بالمداراة من قبل الناس له، إلى حبّ باطني حقيقي يضاعف الترابط الاجتماعي ويكرّس العلاقة الطيبة بينه وبين الأفراد.

وبذلك يُفهم من سياق النصّ وكأنّ الإمام عليه السلام يقول: يا إلهي وسيّدي! اجعل من الحبّ الظاهري الذي يبدو بسبب مداراة الناس لي، حبّاً واقعياً نافذاً في صميم قلوبهم.

وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية وضرورة الإستفادة من بلاغة الأئمّة المعصومين عليهم السلام، لنتعلّم من أساليبهم الحكيمة ما يعود علينا بالفائدة والنجاح في التواصل مع الآخرين.

فمن البلاغة مثلاً عدم استساغة التكرار في الكلام، أي أنّ المعنى الواحد إذا كان بحاجة إلى التكريس والتكرار، فمن الجميل أن لا يتكرّر اللفظ نفسه، وإذا تكرّر المعنى الواحد حكميّاً جيء به في قوالب لفظية مختلفة، لكي يكسبه جمالاً على جمالٍ، ويجعله أكثر وقعاً في نفس الفرد المخاطَب.

مثاله مفردة «المقة» فإذا راجعنا مصادر اللغة نجد أنّ هذه المفردة تعني المحبّة، ورغم أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام هاهنا يناجي الله تعالى – وحديثه ليس موجّهاً لنا نحن ليعلّمنا أُسلوب الخطاب وكيف ننتخب الطريقة الأجمل في الكلام، ورغم إيمان الإمام بغنى الله تعالى عن أساليب البلاغة، وعلمه المسبق بأحوال عباده – إلاّ أنّه عليه السلام مع ذلك يستعمل البلاغة وجمال التعبير حتّى في مقام الدعاء والطلب من الله تعالى، كيف لا وهو المعصوم الذي يعلم علم اليقين بأنّ الله جميل يحبّ الجمال، وهذا الجمال يشمل فيما يشمل جمال الألفاظ وحسن التعبير وبلاغة البيان، كما يعلم عليه السلام علم اليقين أنّ العبد ملزم بمعرفة موقعه وحقيقته كمخلوق تجاه خالقه. ورغم أنّ الله غنيّ عن ألفاظه، إلاّ أنّه ملزم بانتخاب الأجمل والأروع والأبلغ في الكلام.

ولذلك، فإنّ الإمام عليه السلام لم يكرّر عبارته تلك ولم يقل: «**من حبّ المدارين تصحيح المحبّة**»، بل استخدم لفظة «المقة» لتكريس جمالية الأُسلوب في مناجاته مع الله تعالى.

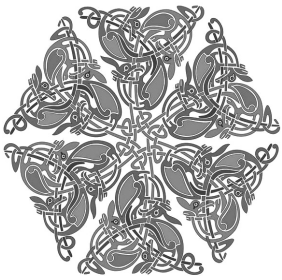

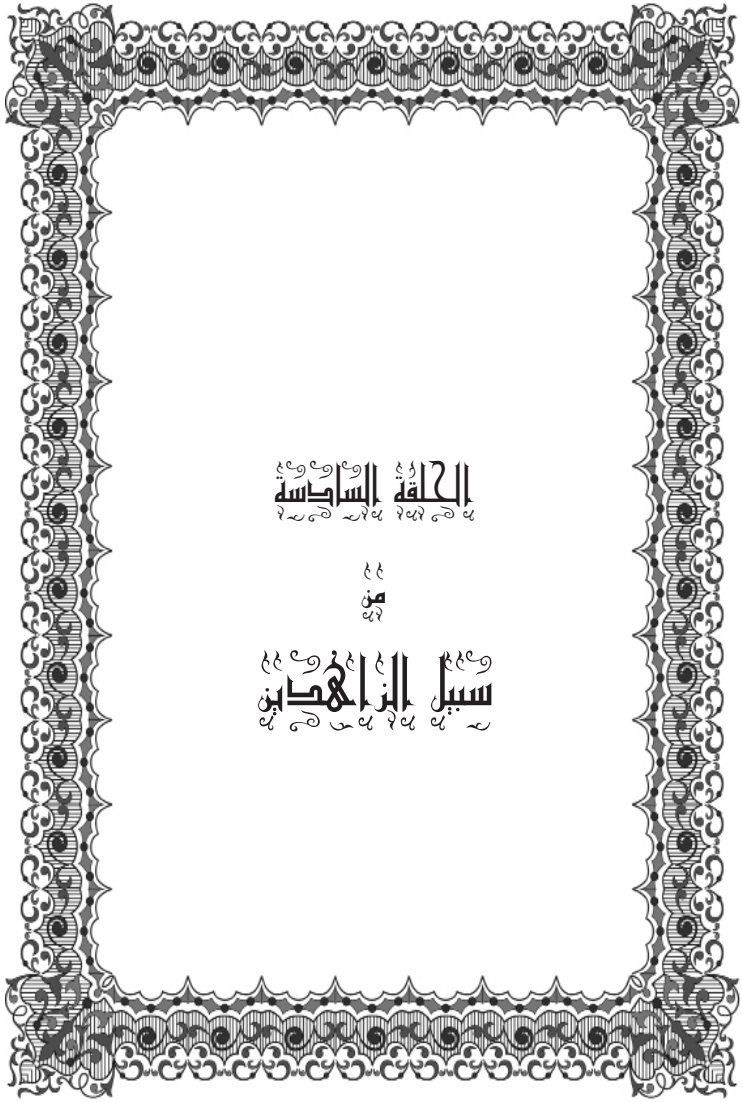

الحلقة السادسة

من

سبيل الزاهدين

القصاص

من طريف ما يُذكر اليوم أنّ فصحاء العرب إجتمعوا سنوات في بداية البعثة حيث كان رسول الله ﷺ في مكّة المكرّمة قبل الهجرة، ليصوغوا جملة تكون رادعة للقتل والتناحر، وبعد نقاش ومداولة طويلة، أقـرّوا عبارة «القتل أنفى للقتل» بعد أن أُعجبوا بها كلّ الإعجاب من حيث اللفظ وقلّة عدد الحروف وعمق المعنى، ولكنّ الله عزّ وجلّ أنزل على رسوله الكريم آية القصاص التي قال فيها: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾(١).

فأمر النبيُّ ﷺ أصحابَه أن تكتب قطعة من هذه الآية وهي ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ وتعلّق على جدار الكعبة إلى جانب عبارة كفّار قريش التي كانت معلّقة في المكان نفسه، وجاء فصحاء القوم فرأوا أنّ لفظ الآية ومدلولها أبلغ وأجزل، ومعناها أتمّ وأجمل من عبارتهم فرفعوا لوحتهم، وذلك لأنّهم لاحظوا أنّه لا تكرار في الآية فضلاً عن أُسلوب المخاطبة بكلمة «**لكم**» وعمق المعنى المؤدّى في كلمة «**القصاص**» وأرجحيّتها على كلمة «القتل»، فضلاً عن وجود كلمة

(١) البقرة/ ١٩٦

«**الحياة**» ومعطياتها التي تفتقر إليها عبارتهم، ممّا جعلهم يرضخون لبداعة الأُسلوب القرآني وإعجازه.

لنتعلّم من القرآن ومن أهل البيت عليهم السلام

ونحن من جانبنا ينبغي أن نتعلّم من القرآن الكريم ومن أهل البيت عليهم السلام، لنرتقي مدارج البلاغة وحلاوة التعبير شيئاً فشيئاً، لأنّ اللفظ بمثابة الإناء، والمعنى بمثابة المحتوى. فإذا كان الإناء جميلاً ومحتوياته كذلك، كان ذلك مدعاةً إلى القبول والإقبال، أمّا إذا كان الإناء غير جميل، فلن تكون ثمّة ضمانة في تقبّل المحتويات وإن كانت على شيءٍ من الجمال في نفسها. وعلى ذلك، فإنّ الأمر المسلّم به هو أنّ للتعبير الجميل مدخلية مباشرة في استساغة المعنى، حتّى في حال المناجاة مع الربّ العظيم تبارك وتعالى، لأنّه جميل يحبّ الجمال.

فنّ المعاشرة!

ثمّ يقول الإمام السجّاد عليه السلام بعد ذلك: ومن ردّ الملابسين كرم العشرة.

في هذه العبارة يعيد الإمام الكرّة في استخدام الأُسلوب الجميل

وانتخاب الكلمات الأبلغ في التعبير.

فالملابسون هم المعاشرون أنفسهم، ولذلك لم يقل عليه السلام: «**ومن ردّ المعاشرين كرم العشرة**»، أو: «**من ردّ الملابسين كرم الملابسة**»، نظراً لأنّ المعاشرة هي الملابسة، وهي كناية عن معاشرة الناس فيما بينهم حتّى يكون القرب فيما بينهم كقرب الإنسان من لباسه. وبسبب هذا القرب والإقتراب تنكشف النواقص والمساوئ في الأخلاق والفعال، ولذلك تكثر الخلافات وردود الأفعال، وهذا ديدن المتعاشرين.

من هنا، يجدر بالإنسان أن يطلب من ربّه الكريم أن يحوّل الخلافات وردود الأفعال من السوء إلى الكرم، فتكون العلاقة بينه وبين القريبين منه والملابسين له علاقة المعاشرة الطيّبة والكريمة، لا علاقة النقد الهدّام أو الاغتياب والانتقاص أو الحسد، فالعشرة لها كرامة، أو هكذا ينبغي أن تكون، وكأنّ الإمام عليه السلام يريد أن يقول: فامنحهم ياربّ هذا الكرم لئلاّ يردّوا عليّ ما يعرفون أو يزعمون أنها من نواقصي.

وهنا – كما سبق في نظائره – يلزم أن يعمل الإنسان أمرين:

الأول: أن يبادر هو قبل أيٍّ كان إلى أن يكون فرداً كريماً في معاشرته للآخرين، فلا يردّ عليهم باللؤم وسوء الأدب، وإنّما يعاملهم بالحسنى

ما استطاع.

الثاني: أن يطلب من ربّه التكرّم عليه بأن يساعده على تحويل ردّ الملابسين – المعاشرين – له، ويبدل صدودهم بعشرة كريمة، ملؤها السماحة والإنصاف والعقلانية.

الأمن من الظالمين:ـ

ثمّ يطلب الإمام عليه السلام الأمن والاستقرار مناجياً ربّه تبارك وتعالى فيقول: ومن مرارة خوف الظالمين حلاوة الأمنة.

ومعلوم أنّ للخوف مرارة أشدّ وقعاً من مرارة الآلام البدنية التي قد تقضّ مضجع المريض، فيهجر لها نومه وتسلب راحته، ولكنها رغم ذلك تبقى آلاماً بدنية تزول وتنسى بزوال أسبابها، بينما الخوف ذو مرارة وآلام تمسّ الروح والبدن معاً، لا تزول أو تنسى وإن زالت دواعيها. ومن هنا جاء في الحديث الشريف: «**نعمتان مجهولتان: الصحّة والأمان**» ممّا يعني لزوم أن يستشعر الفرد نعمة الأمن وهو يرفل في بحبوحته ويطلب من ربّه أن لا يبتليه بظلم الظالمين، فيضطرّه إلى مكابدة مرارة الخوف منهم.

بلى! قد يكون الشعور بالخوف حالة إيجابية وبنّاءة إذا كان من طرف العادل، كالربّ العزيز ذي الحكم العدل، أو من نار جهنّم التي لا يدخلها المخلوق إلاّ بما كسبت يداه وسعت إليه قدماه، بالإضافة إلى أنّ حدود هذا الخوف تبقى بيد الإنسان ، وهو الذي يمسك بموازينها. فالإنسان المحكوم إذا قدّر له العيش تحت مظلّة حاكم أو رئيس عادل، فإنّه سيحدّث نفسه أنّ من الخطأ الخوف، لأنّ العقوبة التي يمارسها الحاكم العادل تعود في نهاية المطاف إلى الفرد المحكوم أساساً، إذا ما اجترح سيّئة أو عملاً غير قانوني يستوجب ذلك، وإلاّ فإنّ الحاكم العادل رجل مأمون الجانب لا يبتغي لنفسه نفعاً جرّاء حكمه.

بينما الحاكم الظالم أو ربّ العمل الظالم أو المعلّم الظالم أو البائع الظالم أو غيرهم يختلف عن ذلك بكثير، إذ لا يُعلم سبب ظلمهم أو مقداره أو زمنه مادام يصبّ في نفع الظالم.

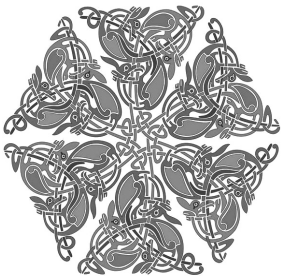

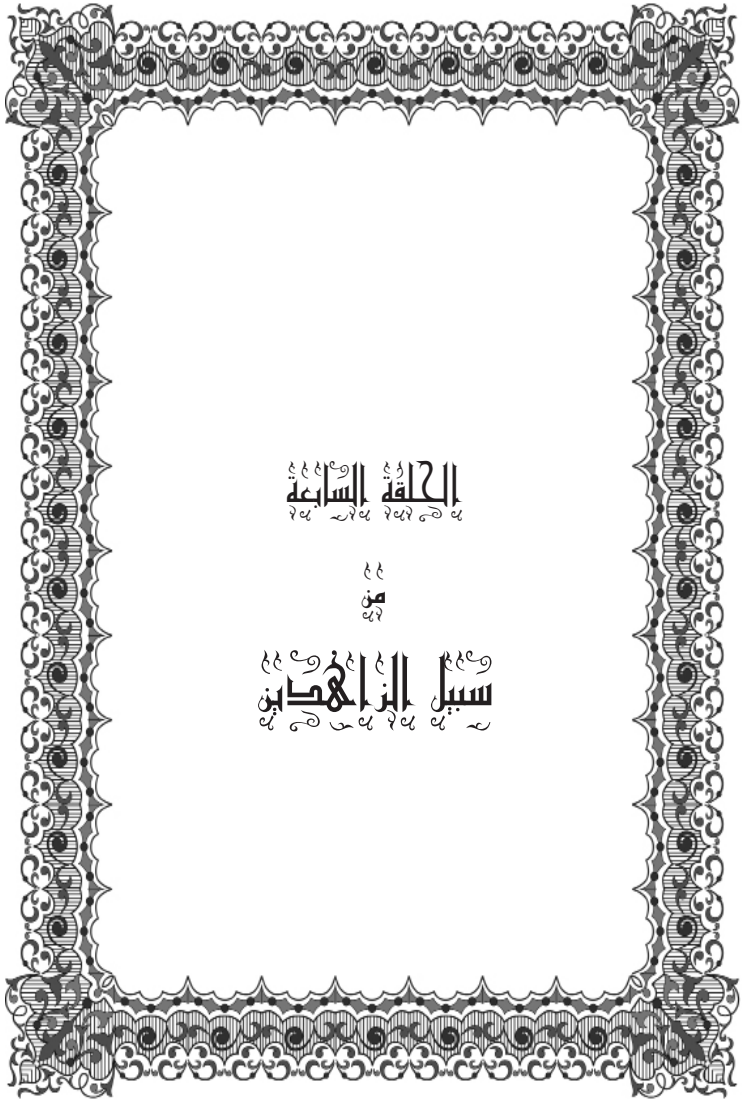

الحلقة السابعة

من

سبيل الزاهدين

قصة معبرة

يروى أنه في إحدى البلدان عزم رئيسها على إرسال قاضٍ إلى إحدى المناطق، إلاّ أنّ حاكم تلك المنطقة سرعان ما قام بقتله، وحتّى يتبيّن له السبب في ذلك، قام بإرسال قاضٍ آخر، ولكنّ الحاكم ألحقه بالقاضي الذي سبقه، الأمر الذي أدّى ببعض القضاة إلى الإمتناع عن التوجّه إلى ممارسة القضاء في تلك المنطقة، غير أنّ أحدهم تبرّع بقبول المنصب لقاء أجرٍ باهض جدّاً، مدّعياً أنّه سيعمل على الكشف عن أسباب مقتل القاضيين اللذين سبقاه، ومن ثم يعلم رئيسه ليقضي على الحاكم وفي الوقت نفسه يكسب ثقة الرئيس بعلمه وعمله لكي يضمن لنفسه بعد ذلك منصباً أرفع وأجراً أعلى. وحين توجّه إلى تلك المنطقة أخذ بمسامرة ومجالسة حاكمها، ليعرف منه أسباب قتله القاضيين السابقين بصورة مباشرة، ولما اطمأنّ به الحاكم بعدما أخذ بمجامع عقله وقلبه، قال له: إنّه لم يقتل القاضي الأول إلاّ بعد أن رأى في منامه ذات مرّة أنّه عدوّ لدود له، وحينما استيقظ مرعوباً، أمر بقتله فوراً. أما القاضي الثاني فرأى فيه رؤيا وكأنه حلّ مكانه حاكماً، ففزع والشرّ يتطاير من عينيه، فألحقه بصاحبه.

فلما سمع القاضي الثالث تلك الإفادة لم يجد بدّاً حينها إلاّ الهروب والعودة إلى رئيسه، مؤكّداً له بأنّه يعجز عن أن يأمن جانب حاكم أن يقتله ويلحقه بالقاضيين الآخرين بسبب رؤيا يراها في حقّه.

إذن ليس كلّ خوف له مرارة، أمّا الخوف من الظالم فإن له مرارة شديدة، لأنّه لا يُعلم ماذا سيصدر عنه، ولأي سبب سيعاقب، وكيف ومتى سيعاقب ويعتدي، ولا يكفي أن يحتاط المرء في تجنّب ما نهى عنه، ما لم يسأل الله عزّ وجلّ أن يحرسه بعينه التي لا تنام، ويرعاه في الصحة والأمان.

ينبغي الإلتفات جيّداً إلى أنّ جميع الجمل التي تكلم بها الإمام السجّاد عليه السلام في دعائه الشريف هذاوهودعاء مكارم الأخلاق، قد طلب فيها من ربّه أن يبدله عن الحالة السيّئة بحالة جيّدة، فعن عقوق أرحامه بمبرّتهم، وعن ردّ الملابسين بكرم العشرة، وعن بغضة أهل الشنآن بالمحبّة، ولكنّ الإمام عليه السلام هنا في هذه الجملة من الدعاء لم يطلب من الله تعالى أن يجعل ظلم الظالم أمناً، لأنّه إذا أمن الناس جانبه لم يعد ظالماً بعد، بل طلب من الله تعالى أن يبدل مرارة الخوف من الظالم إلى الشعور بالأمان، أي عدم العيش تحت ظلّ الظالم، وإلاّ فإنّ الظالم لا يتوقّع منه

غير الظلم!

انظروا إلى دقّة التعابير في دعاء الإمام عليه السلام : فإنّ ظاهر عبارة الإمام تغيير حالة أولئك، أمّا الظالم فإمّا أن لا يكون ظالماً أو اجعلني اللهمّ في مكان وزمان بعيدين عن الظالم، لأنّ وجود الظالم يعني وجود الخوف من ظلمه.

الدعاء دعوة للتغيير وتحصيل ملكة العدالة:ـ

ومقطع الدعاء هذا يتضمّن – فيما يتضمّن – أن يهجر الإنسان الظلم ويمتنع عن ممارسته تجاه نفسه أولاً، وتجاه الآخرين ثانياً، بمعنى أن يعي الإنسان مدى الحكمة في وجوب تحصيل ملكة العدالة، وهو وجوب عقلي، كما هو الواجب على كلّ مكلّف غير بالغ مرتبة الإجتهاد والإستنباط أن يكون مقلّداً أو محتاطاً في عباداته ومعاملاته.

فإذا أراد الفرد أن يمتنع عن المعصية، فالواجب عليه أن يخالف هواه وأن يكون مطيعاً لمولاه، ومن أولويات ذلك عليه أن يخلق وينمّي ملكة العدالة في نفسه، باعتبارها مقدّمة لممارسة طاعة وليّ أمره.

ولعلّ من أروع الفرص المتاحة أمام الإنسان لتنمية هذه الملكة،

وتقويتها هي فرصة الأشهر الحرم ذات الفضيلة والأرجحية على باقي الشهور، فكما يمكن للراغب أن يستثمر هذه الأشهر في مضاعفة ثواب الصلاة والصيام والصدقة، كذلك يمكنه أن يستثمرها في الإرتقاء بمستوى أخلاقه الحميدة وحسن سلوكه الذي لا يوصف ثقله في ميزان العبد يوم القيامة حتّى ليجرّ صاحبه جرّاً إلى الجنّة!! كما في الحديث: «**ما وضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخُلُق**»....

لا شكّ أنّ حسن الخلق الراجح - الذي هو أحد أركان ملكة العدالة - إنّما يرتجى من داخل نطاق الأُسرة كما يرتجى من خارجها، ولا شكّ أيضاً أنّ هذا الإنجاز ليس بالأمر السهل، تبعاً لوجود الموانع الصعبة والقوية، والتي منها وساوس الشيطان، والنفس الأمّارة بالسوء التي ترهق الإنسان بأحمال لا طاقة له بها، فترديه إلى المهالك.

وبالتالي، فإنّ من لم يطرد الشيطان، أو يبذل قصارى جهده في مهمّة نبذه عن كيانه، وعجز في الوقت ذاته عن كبح جماح نفسه الأمّارة بالسوء، فليتيقّن خسارته للدنيا والآخرة من الأساس، فهؤلاء الطغاة والظلمة الذين مارسوا الحكم التعسّفي ثمّ ماتوا، إنّما ماتوا من فرط شهوات أنفسهم الأمّـارة بالسوء، كشهوة البطن، وخير شاهد على

ذلك أنّ القليل النادر من الطغاة من يصادفه الحظّ فيعمر طويلاً، إذ لا تدع لهم شهواتهم وتكالبهم على حطام الدنيا فرصة العيش في الدنيا طويلاً، كما يؤيّد هذا المضمون بعض الأحاديث الشريفة، التي تصف الأكول الذي يأكل أكثر من حاجة بدنه، حيث روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إياكم والبطنة، فإنها مفسدة للبدن، ومورثة للسقم، ومكسلة عن العبادة**».

ولكنّ الأنبياء عليهم السلام، وفي مقدّمتهم رسول الله ﷺ وكذلك أئمّة أهل البيت عليهم السلام كانوا أعرف الناس بالدعاء والجأر إلى الله تقدّست أسماؤه، كذلك كانوا أكثر الناس سعياً لتكريس معاني الدعاء، فكانوا يتحمّلون المشاقّ والجوع والأذى والقتل من أعدائهم بل حتى من أقاربهم وأصدقائهم ومن بعض أتباعهم، وكم سعى رسول الله ﷺ وجاهد وعانى ودعا إلى جانب ذلك، حتّى يرسم للإنسانية النموذج الربّاني الأصدق، فصار القدوة الحسنة لسائر الأجيال.

فمن المفترض على الفرد المؤمن أن يجعل من الدعاء عاملاً مهمّاً في شحذ همّته وإقدامه على ما ينبغي له أن يقوم به من الطاعات، وما ينتهي عنه من المحرّمات، إذ الدعاء عامل دفع إلى ممارسة الخير من جانب، وعامل كبح للشهوات من جانب آخر.

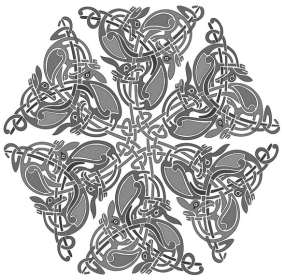

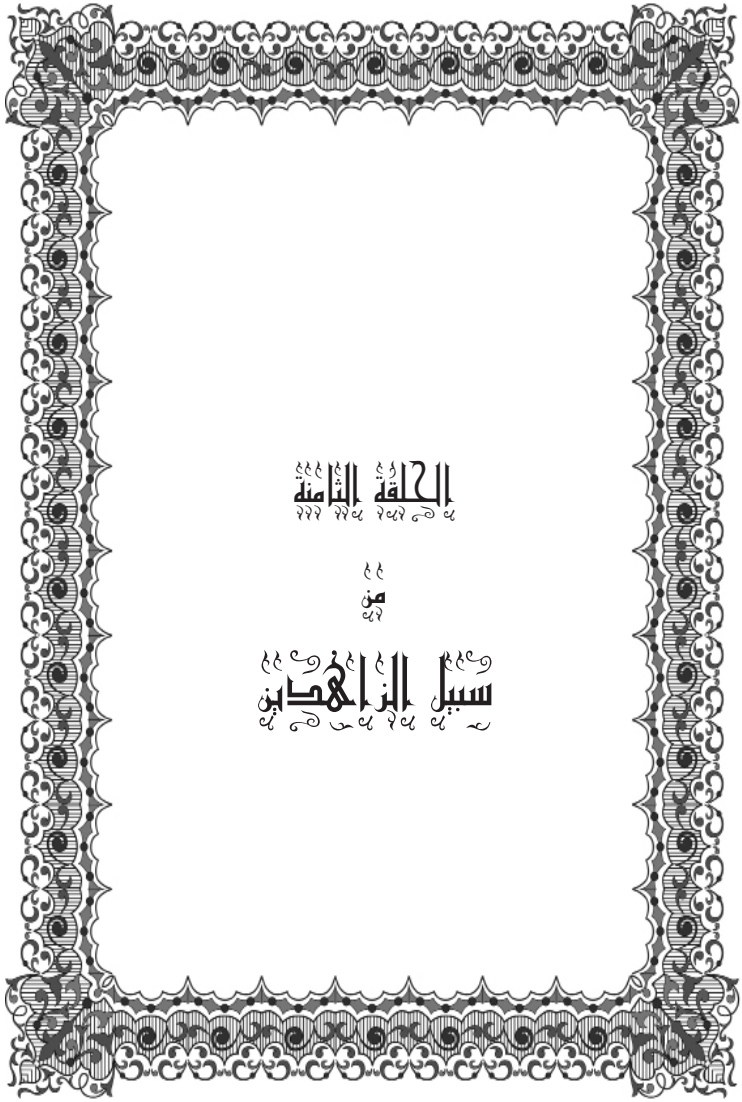

الحلقة الثامنة

من

سبيل الزاهدين

الظلم والمخاصمة

«اللهمّ صلّ على محمّد وآله واجعل لي يداً على من ظلمني، ولساناً على من خاصمني، وظفراً بمن عاندني، وهب لي مكراً على من كايدني، وقدرة على من اضطهدني، وتكذيباً لمن قَصبني، وسلامة ممّن توعّدني، ووفّقني لطاعة من سدّدني ومتابعة من أرشدني».

في المقدّمة لابدّ من بيان الفرق بين الظلم والمخاصمة، ونذكر في المقام أمرين:

الأول: إنّ الظلم عادةً يكون من طرف واحد، أمّا المخاصمة فغالباً ما تكون بين طرفين.

أجل إنّ الخصومة القلبية قد ترد من طرف واحد، أمّا المخاصمة اللسانية فغالباً ما تكون بين طرفين، أحدهما يتكلّم والآخر يردّ عليه.

الثاني: إذا كان الظلم صادراً من الطرفين فهو ليس من موارد الدعاء، إذ لا معنى لأن يطلب أحد الظالمين من الله تعالى أن يهبه القدرة على الظالم الآخر، لأنّ الله تعالى لا يحبّ الظالمين.

وهذا المعنى غير متصوّر بالنسبة للإمام المعصوم عليه السلام الذي لا يرتكب ذنباً فكيف بالظلم وهو ذنب عظيم، فضلاً عن أن يطلب من الله تعالى مثل هذا الطلب، وهو يعلم أنّ الله تعالى لا ينصر ظالماً على ظالم لدعائه عليه، بل يكون كلا الظالمَين القاتل والمقتول في النار، كما في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «.. **قيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: لأنّه أراد قتلاً**»

إذا اتّضحت هذه المقدّمة نقول: إنّ الإمام عليه السلام طلب من الله تعالى أن يمنحه القوّة لدفع الظلم عنه – وهو ما يصدر عادةً من طرف واحد وهو الظالم – وكنّى عن القوّة هنا باليد، وحيث إنّ المخاصمة تكون بين طرفين يحاول كلّ منهما إفحام الآخر، فإنّ الإمام عليه السلام يطلب من الله تعالى في هذه الحالة أن يمنحه القوّة التي تجعله متفوّقاً على خصمه وهي قوّة الردّ التي عبّر عنها باللسان.

كما ينبغي الإلتفات بدءاً إلى نقطة مهمّة وهي: أنّه ليس كلّ إنسان منحرف عن الحقّ يُعدّ – في مقام الواقع – معانداً، إنّما المعاند هو الذي عرف الحقّ فزاغ عنه بإصرار، قال تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا**

أَنْفُسُهُمْ﴾[١]، ولذلك نقرأ في دعاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المعروف بدعاء كميل رضي الله عنه «**أن تخلّد فيها المعاندين**».

إنّ كثيراً من المنحرفين عن نهج أهل البيت عليهم السلام لم يكونوا سوى عاصين قد غرّرت بهم وغسلت أدمغتهم الدعايات المضلّلة والكاذبة لوعّاظ السلاطين ومن لفّ لفّهم فأعمتهم عن رؤية الحقّ بوضوح، لذلك نسمع عن كثيرين منهم ما إن اطّلعوا على الحقيقة حتّى سارعوا للإيمان بنهج أهل البيت عليهم السلام، وما أكثر القصص في هذا المجال والتي تنتهي بالمستبصر بترديد قول الله تعالى: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾[٢].

أمّا المعاند فهو الذي لا يرضخ للحقّ رغم معرفته به، قال تعالى في وصف علماء اليهود والنصارى المعاندين – الذين يعرفون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومع ذلك ينكرونه –: ﴿**يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾[٣].

إذا اتّضحت هذه المقدّمة نقول:

---

(١) النمل/ ١٤

(٢) الأنعام/ ١٢٤

(٣) البقرة/ ١٤٦

أمام أشخاص كهؤلاء – ليسوا منحرفين فقط بل معاندين لا تجدي معهم الموعظة – يطلب الإمام السجّاد﵇ من الله تعالى أن يُظفره بهم وينصره عليهم، فيقول:«**وظفراً بمن عاندني**».

المكر على الكائدين:ـ

هاهنا أيضاً تبدو لنا ثلاث نقاط ينبغي الإلتفات إليها، وهي:

النقطة الأولى: إنّ الإمام﵇ في الموارد التالية غيّر عبارة الطلب، فبعد أن كان طلبه في الموارد الثلاثة المتقدّمة بعبارة: «اجعل لي» عدل عنها إلى عبارة: «**وهب لي**». ولعلّ هذا يعود للإختلاف في نوع الطلب، لأنّ الأُمور الثلاثة السابقة كانت تحتاج إلى عمل خارجي، ولذلك عبّر عنها الإمام﵇ بقوله: «**اجعل لي**» أمّا هنا فإنّ المكر وما بعده يتطلّب الفهم والفكر، ولذلك قال الإمام﵇ : «**هب لي**».

النقطة الثانية: إنّ المكر – الحيلة كما في اللغة الدارجة – يختلف في الاستعمال العرفي عن معناه اللغوي والواقعي، فالمكر في اللغة ليس كلّه سيّئاً بل بعضه سيئ! ولذلك قال تعالى: ﴿**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا**

بِأَهْلِهِ﴾[١] وقال أيضاً: ﴿**أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ**﴾[٢].

المكر يعني أن تحتال بإستعمال الفكر للتغلّب على خصمك ولو بالتمويه عليه. والكيد مثله، في محاولة كلّ طرف أن يكيد بخصمه ويمكر له.

وفي المقام يطلب الإمام عليه السلام من الله تعالى أن يهبه الفكر الذي يمكّنه من المكر بمن كايده – أي بمن يكيد للإمام – ولذلك لم يقل الإمام عليه السلام «بمن كادني» بل قال: «**بمن كايدني**» عليه السلام، لأن الكيد من طرف أما المكايدة فبين طرفين.

النقطة الثالثة: إنّ الكيد يعني الخدعة وهو غير الكذب والفتك.

صحيح أنّ المكر والكيد والخدعة أُمور ليست مذمومة في كلّ حال، بل منها ما هو سيئ ومنها ما هو حسن، كما في الحرب التي هي من الموارد التي تجوز فيها الخدعة، فلقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أنّه قال: «**الحرب خدعة**» . ولكن إستعمال المكر والخدعة لا يعني اللجوء

(١)فاطر/ ٤٣
(٢) النحل/ ٤٥

إلى الكذب والفتك، وهذا من سيّئ الاعمال فيهما لأنّ الكذب من أعظم الكبائر، كما أن «**الإيمان قيّد الفتك**» .

أي بمعنى أنّك قد تقوم بعمل ما لتوحي لخصمك بأمر ما وأنت تنوي خلافه، وقد تحاول تضليل عدوّك قبل الحرب أو في أثنائها تبتغي بذلك تقليل الخسائر أو تعجيل النصر أو ما أشبه من الأُمور التي يدعو إليها العقل ويحبّها الله تعالى، كما روي عن رسول الله ﷺ في كتب السير أنّه سار قبل غزوة بدر في خلاف الجهة التي كان يتوقّعها الناس يريدﷺ بذلك تضليل العدو ولئلاّ يشعر به الجواسيس، فتبقى المبادرة بيده من دون ظلم أحد، ولكن لا يجوز مثلاً أن تمنح عدوّك الأمان ليسلّم نفسه فإذا سلّم نفسه بادرت لقتله غيلة أو صبراً، لأنّ هذا يعدّ فتكاً، والإسلام لا يرضى به.

أمّا أن تستر مذهبك عن العدو، أي تخادعه، فهذا مطلوب كما في المروي عن أمير المؤمنينعليه السلام أنه قال: «**فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك**».. لئلاّ يعرفك العدو.

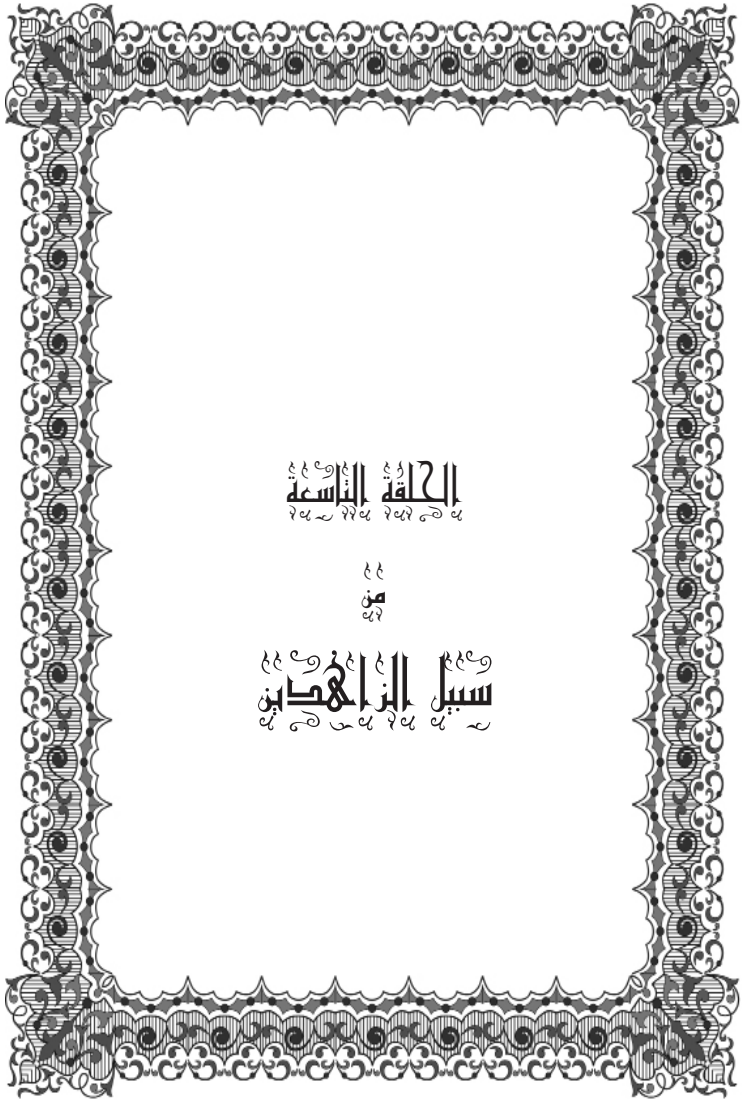
الحلقة التاسعة
من
سبيل الزاهدين

الأضطهاد

يقول الإمام ﷺ في دعائه: «**وقدرة على من اضطهدني**»، وقبل بيان المعنى العام لهذه الجملة من كلام الإمامﷺ ننوّه إلى أنّ كلمة «اضطهاد» مشتقّة من لفظة «ضهد» في باب الإفتعال، ولذلك فهي في الأصل «اضتهاد» ثم أُبدلت تاؤها طاءً، لأنّها من المواضع التي تبدل فيها التاء إلى طاءٍ – في اللغة العربية – تخلّصاً من الثقل وصعوبة التلفّظ بالتاء التي تأتي بعد الضاد في المفردة الواحدة.

والإضطهاد في اللغة هو الظلم – بالمعنى الأخصّ – لأنّه يعني الظلم الذي يقع على الإنسان بسبب عقيدته، ثمّ توسّع استعماله من باب المجاز فصار يشمل غير ذلك.

فكأنّ الإمامﷺ يقول: إلهي هب لي القدرة على من يظلمني بسبب عقيدتي وميولي الحقّة، فلا يتمكّن من ذلك.

والملفت للإنتباه هنا أنّ الإمامﷺ استعمل في دعائه – في الجمل الثلاث الأول من هذا المقطع – عبارة «**اجعل لي**»– كما تقدّم الحديث عنه آنفاً – بينما أبدل عبارته هنا – في الجمل التالية – إلى «هب لي»،

وعندما طلب من الله تعالى العون مقابل الظلم قال عليه السلام : «**اجعل لي يداً على من ظلمني**» فاستعمل كلمة «يد» للتعبير عن القوّة والقدرة ولكنّه هاهنا – في مقابل الإضطهاد، وهو الظلم الخاصّ الواقع على المرء بسبب العقيدة والمبدأ – استعمل الإمام عليه السلام لفظة القدرة نفسها لتدلّل على المدد النفساني الذي يهبه المولى تعالى لعبده، فقال: «**وقدرة على من اضطهدني**»، ولا شكّ أنّ وراء هذا الاختلاف تكمن معانٍ دقيقة حريّ بأهل العلم الوقوف عندها والتأمّل فيها.

ثمّ يقول الإمام عليه السلام بعد ذلك: «**وتكذيباً لمن قصبني**» أي أعاب علي.

من الواضح أنّه لا يخلو أي إنسان من عيب لأنّ الله تعالى خلق الدنيا هكذا، لكي يمتحن بها العباد، فإذا كان الإنسان غنيّاً أُصيب بعيوب كالكبر والغرور والبخل، وغير ذلك، وهذه كلّها نواقص يعاب عليها، وإن كان فقيراً ابتلي بالعيوب التي يفرزها الفقر وربما انتقصه بعض الناس بسبب الفقر نفسه وعدّوه عيباً، وهكذا هو الإنسان في كل حالاته. والناس عادة لا يكفّون ألسنتهم عن أحد أبداً، ولذلك يطلب الإمام السجّاد عليه السلام من الله تعالى أن يهبه إمكانية تكذيب من شغلهم الإنتقاص له وتعييره.

السلامة من المتوعّدين:ـ

الوعد إمّا أن يكون في خير كما لو يعد الإنسان ابنه فيقول: إذا نجحتَ في الامتحان فسأعطيك جائزة، وإمّا أن يكون في الشرّ وهو الوعيد ومنه التوعّد، وهو الذي يطلب الإمام﵇ من الله تعالى أن يهبه الفكر أو التدبير للتخلّص والسلامة من المتوعدين له.

إنّ الإمام﵇ طلب في دعائه من الله تعالى أن يخلّصه من شرور الظالمين والمخاصمين والكائدين والمعاندين والمضطهدين والقاصبين والمتوعّدين، ولكن ينبغي لنا أن نعرف أيضاً أنّ هؤلاء كلّهم بشرورهم إلى زوال ولكن هناك عدو أعدى منهم كلّهم، ولو تمكّن هذا العدّو من الإنسان ألحق به عذاباً لا يزول أبداً، وذلك العدّو هو النفس الأمّارة بالسوء. أتدرون ماذا تصنع النفس بالإنسان إن هو مكّنها من عقله؟ سوف تقوده إلى نار سجّرها جبّارها لغضبه.

إنّ الله تعالى خلق الخلق ليرحمهم، فقال عزّ من قائل: ﴿**إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ**﴾[1] ولذلك خلقهم أي ليرحمهم، إلّا أنّ الإنسان بتصّرفاته واتّباع هوى نفسه الأمّارة بالسوء يجلب غضب الله عزّوجلّ، فلابدّ إذا

(١) هود/ ١١٩

من التفكير بصورة جادّة في علاج هذه المشكلة. إنّ الدعاء جزء مهم من العلاج، غير أنّ الجزء الأهمّ فيه يتمثّل في قوله

تعالى: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾[1] . فلابدّ من الاستعانة بالرياضة الروحية المشروعة، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «**وإنّما هي نفسي أُروّضها بالتقوى**» وفي الحديث الشريف أيضاً: «**ليس منّا من لم يحاسب نفسه كلّ يوم ...**»

وروي أنّه كان نبينا موسى بن عمران عليه السلام يعظ أصحابه إذ قام رجل فشقّ قميصه فأوحى الله عزّوجلّ إليه: ﴿**ياموسى قل له: لا تشقّ قميصك ولكن اشرح لي من قلبك**﴾.

ولو تأمّلنا في أحوال الذين أودت بهم أنفسهم في نار جهنّم لرأينا أنّ فيهم من حظي بما لم يحظ به كثير من المؤمنين.

يروى أنّ «فلاناً» كان من بين الذين عاشوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر من عشرين سنة غير أنّ مصيره سيكون من أصحاب التابوت، وهو صندوق من النار في جهنّم يودعون فيه لو فتح بابه لتأذّى منه أهل النار،

(١) النجم/ ٣٩

رغم ما هم فيه من العذاب الذي عبّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾[١] .

فما الذي جعل مصير أشخاص كهؤلاء أسوداً هكذا سوى نفوسهم وحبّها للرئاسة؟ وهذه النفس – كما لا يخفى – موجودة عند كلّ إنسان، فإن غفل عنها أو استجاب لرغباتها قادته إلى نفس المصير!

فلنفكّر قليلاً من أجل كبح جماح ما قد يصدر من هذه النفس التي أودعها الله فينا ليختبرها أندسّها أم نزكّيها ثم تكون النتيجة كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٢] ويكون الناس بعد ذلك كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾[٣] فيكون مصير أخوين عاشا معاً في محيط واحد بحيث يكون أحدهما وهو محمّد بن الفرج الرخجي – من أوثق أصحاب الإمامين الجواد والهادي عليهما السلام – في روضة الخلد مع الذين فيها يحبرون، بينما يكون أخوه عمر بن الفرج الرخجي في حصب جهنّم مع الذين فيها يصطرخون، لأنّه

(١) فاطر/ ٣٧
(٢) الشمس/ ٩-١٠
(٣) آل عمران/ ١٦٣

كان من أشدّ أعداء أهل البيت عليهم السلام، كما تجد إنساناً قيّض له أن يكون من أهل التابوت بينما يكون ابنه في أعلى علّيين.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حقّ محمّد بن أبي بكر: «**محمّد ابني من صلب أبي بكر**».

فلنتأمّل في هذه الفقرات ونتصوّر أنّ مصاديقها الأجلى هي نفس الإنسان فنطلب من الله تعالى أن يهبنا القدرة على أنفسنا لكي نوفّق ونكون من الذين اتّخذوا طريق التدرّج في الصعود والرقي بلوغاً إلى أعلى الدرجات ببركة النبي محمّد وآله الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

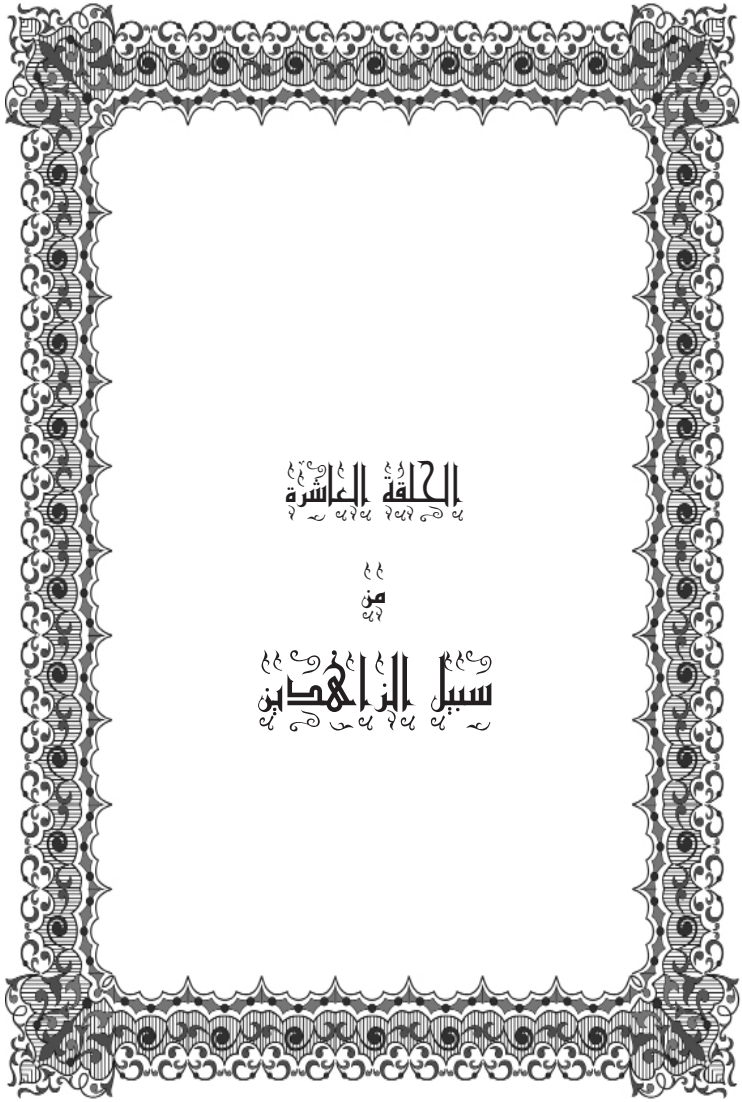

الحلقة العاشرة

من

سبيل الزاهدين

ترويض النفس وخداعها

إنّ النفس لا تتغيّر نحو الأفضل أو الأسوأ دفعةً واحدة بل بالتدرّج، وكما قيل: إنّ سارق البيضة يتدرّج حتّى يصبح سارق سلطان، فقد حكي أنّ شخصاً سرق أموال السلطان فحكم عليه بالإعدام، ولمّا جيء به لتنفيذ الحكم عليه قيل له: ما حاجتك؟ فقال: أُريد أُمّي. وعندما جيء بها قال لها: أنتِ السبب في قتلي. قالت: ولِمَ؟! وهل أنا التي أمرتك بسرقة السلطان؟! قال: لا، ولكن يوم رأيتني سرقت بيضة من الجيران شجّعتِني ولم تردعيني فتدرّجت حتّى بلغ بي الأمر أن سرقت أموال السلطان، وحكم عليّ بالموت.

ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَسُسْ نَفْسَهُ أضَاعَها**» أي كما هي تخدعكم أنتم أيضاً حاولوا خداعها.

فمثلاً لو لم يكن شخص من أهل صلاة الليل فلا يفرض على نفسه أداءها كاملة طويلة في أول مرّة، بل ليكتف بأقلّ ما تطاوعه به نفسه أولاً ثمّ يزيد شيئاً فشيئاً لئلاّ تفلت ولا تستجيب له بعد ذلك، ولذلك قيل: من يمشِ هوناً يمشِ دهراً، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**المنبتّ لا**

أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

إذن علينا التدرّج بالنفس، كما علينا الاستنارة بكلمات المعصومين عليهم السلام وسيرتهم لأنّ «**لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه**» كما ورد في رسالة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف، فلنحاول الإقتداء بأئمّتنا ما أمكننا، فإنّ الإمام عليه السلام نفسه يقول: «**ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفّة وسداد**» وأين نحن منهم عليهم السلام ولقد كانوا قمّة في حبّ الله وخشيته، فما لنا إذن سوى الورع والسداد والعفّة والاجتهاد، فهذا كفيل بمرضاة الله تعالى.

روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام «**أنّ امرأة ادّعت على أبيه علي بن الحسين عليهما السلام ما عند والي المدينة أنّ لها عليه أربعمائة دينار. فقال الوالي: ألك بيّنة؟ قالت: لا ولكن خذ يمينه. فقال والي المدينة يا علي، إمّا أن تحلف وإمّا أن تعطيها. فقال لي: يابني قم فأعطها أربعمئة دينار. فقلت: يا أبه جعلت فداك ألست محقّاً؟ فقال: بلى يابني ولكنّي أجلّ الله تعالى أن أحلف به يمين صبر**» . فلننظر لأنفسنا هل نكون مثل الإمام عليه السلام أم ترانا نحلف بالله تعالى لأدنى سبب؟!

وهكذا يجب أن تكون علاقاتنا مع بعض. علينا أن نقتدي بالأئمّةعليهم السلام ونتّخذ سبيل التسامح والعفو ونغفر لإخواننا ونعذرهم، فإنّ بروز المشكلات بين الإخوة والمتعاشرين كالأرحام والزملاء والزوجين والأساتذة والتلاميذ والصديق وصديقه أمر طبيعي يولّده القرب والاحتكاك، فلذا لا ينبغي تضخيمها وعدم التسامح بشأنها بل اللازم الاقتداء بأئمّتناعليهم السلام الذين كانوا المثل الأعلى في الأخلاق الفاضلة وهذا كلّه لا يأتي إلاّ بالترويض والتدرّج كما قلنا.

ينبغي لنا أن ننتهز الفرص التي تمرّ بنا، ومن هذه الفرص المناسبات التي جعلها الله تعالى لنا مثل شهر رمضان المبارك، ومنها أيضاً هذه الأيّام أيّام شهر ذي الحجّة لاسيّما العشر الأول منها، ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله: «**ما من أيّام العمل الصالح فيها أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من أيام العشر يعني عشر ذي الحجّة**» وقد تكرّر ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ**﴾ [1] و ﴿**أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ**﴾ [2].

فهذه فرص رفيعة جدّاً - ولا أقول ذهبية، إذ ما قيمة الذهب

(١) الحج/ ٢٨
(٢) البقرة/ ١٨٤

إزاءها – فلنغتنمها ونأخذ بزمام أنفسنا بأيّة نسبة استطعنا.

روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: ...«**فهو يحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، لا يبالي بما فات من دينه إذا سلمت له رئاسته التي قد يتقي من أجلها**».

وربما كان هذا الذي وصل إلى هذه الدرجة من خير خلق الله ولكنّه نزل تدريجياً حتّى وصل هذه الدرجة.

كما يمكن لمن هو في مثل هذه الدرجة أن يترقّى تدريجياً حتّى يكون من الذين لا يهمّهم سوى أمر الآخرة.

ثم يقول الإمام عليه السلام: «**ووفّقني اللهمّ لطاعة من سدّدني ومتابعة من أرشدني**» فلنقف عند هذه الكلمات.

صحيح أنّه يمكن التوسّع في هذه الكلمات وأشباهها واستعمال بعضها مكان بعض مجازاً، مثل جعل كلمة الطاعة مكان المتابعة أو العكس، وكذا بالنسبة للتسديد والإرشاد، ولكن إذا أخذنا بنظر الاعتبار مجيء هذه الكلمات معاً في سياق واحد فإنّ الدقّة تقتضي اختلاف معانيها، خاصّة وأنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام هم أُمراء الكلام وأسياد البلاغة وأرومة الفصاحة. ومن يراجع كتب اللغة يجد فرقاً في

استعمال هذه الكلمات وبحثاً مستقلاً لهذه الكلمات الأربع خاصّة.

فمن موارد استعمال الطاعة الإمتثال بلا تأمّل، والعكس صحيح، فإنّ الإمتثال دون تأمّل هو الطاعة بعينها، أمّا المتابعة فهي تعني دوام الإمتثال، ولعلّ هذا يفسّر معنى الحديث المروي عن رسول الله ﷺ: «**إذا رأيت شحّاً مطاعاً وهوىً متّبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك أمر العامّة**» لأنّ للبخل جذوراً في كلّ نفس تجعل صاحبها يبخل إمّا بماله أو وقته أو كرامته أو علمه ... لذلك ترى البخيل يتأثّر إذا أعطى من ألفه مئة، وما ذلك إلاّ لجذور البخل في نفسه، فكأنّ البخيل يغمض عينيه ويتبع ما يملي عليه الشحّ في نفسه فيقوده إلى النار.

الفرق بين السداد والرشد:ـ

أمّا الفرق بين السداد والرشد فالظاهر من الرجوع إلى كتب اللغة أنّ السداد يعني الصواب الذي لا يعاب عليه.

وقد يسأل هنا: هل يوجد صواب يعاب عليه الإنسان ليقال: هو الصواب الذي لا يعاب عليه.

الجواب: إنّ الصواب يعني الصحيح، ولكلّ صحيح مورد، فإذا خرج عنه عيب عليه، وللسداد مصاديق عديدة كالصدق مثلاً الذي

يكون قبيحاً فيما إذا أدّى إلى فتنة فعندها لا يكون من مصاديق السداد، لخروجه عن المورد الذي ينبغي أن يكون فيه، أمّا إذا كان الصدق في مورد إصلاح ذات البين فإنّه يكون سداداً دون شكّ، ومن هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام : «**وما زال أحدكم يكذب حتى لا يبقى في قلبه موضع إبرة صدق فيسمى عند الله كذّاباً**» .

إذاً فالمراد من المسدّد في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام هو الدالّ على الصواب الذي لا يعاب عليه.

ولا يخفى أنّ الإنسان قد لا يدقّق أحياناً في أمر ما فيطمئن به ويبني عليه لاعتقاده بصوابه ثمّ ينكشف له أنّه كان مخطئاً، أمّا الذين يتحقّقون بالقدر اللازم فعادة ما لا يعاب عليهم ولا يندمون في حياتهم، ولذلك فطاعة المسدّد بلا شكّ كفيلة بانتشال الصنف الأول وانقاذه من الوقوع في الخطأ.

أمّا الرشد فهو الأمر الذي لا زيغ فيه ولا غواية وهو أقرب إلى الحقّ منه إلى الهداية، لأنّ كلمة الهداية، مثل كلمة الصواب مطلقة، فإنّ أصحاب الأفكار الباطلة يهدون إلى الباطل، أمّا الرشد فلا يستعمل إلاّ في الموارد التي تنعدم فيها نسبة الزيغ والغيّ، ولذا فمتابعة المرشد سبيل

نحو الصلاح.

بعد هذه المقدّمة نقول: إنّ الإمام عليه السلام يطلب من الله تعالى أن يجعله مطيعاً لمن سدّده لا يناقشه في تسديده، متابعاً لمن أرشده لا يعصي له أمراً، مثله كمثل طاعة المريض للطبيب الثقة الحاذق فيما إذا أشار عليه بتناول الدواء أو اجتناب بعض الأُمور لأنّه مطمئن إلى أنّه إنّما يسدّده إلى ما ينفعه، ويرشده لما يصلحه.

والملفت للنظر هنا أنّ الإمام عليه السلام لم يستعمل صيغة المضارع في الجملتين بل استعمل صيغة الماضي فقال «**طاعة من سدّدني ومتابعة من أرشدني**»، ولا شكّ أنّ في ذلك نكتة خاصّة وإن كان العرف لا يلتفت عادةً إلى الفرق في الاستعمال بين الماضي والمستقبل.

على كلٍّ فإنّ الإمام عليه السلام يطلب من الله تعالى أن يوفّقه لامتثال أمر من يسدّده سواء عرف المصلحة فيما يأمره أم لا، والسؤال هنا: من هم المصداق الواقعي لهذه الجملة؟

الجواب: إنّهم أهل البيت عليهم السلام. فلا يوجد أحد على مرّ التاريخ تبع أهل البيت عليهم السلام ثمّ عيب عليه، بل لا يوجد أحد تبع أهل البيت عليهم السلام ولم يتبيّن له وجه الحق. إنّهم صلوات الله عليهم يرشدوننا إلى ما ينبغي لنا فعله ويسدّدوننا لما فيه الصلاح.

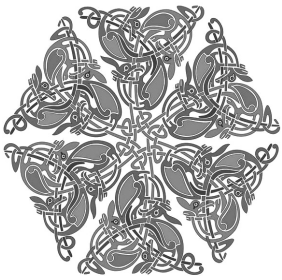

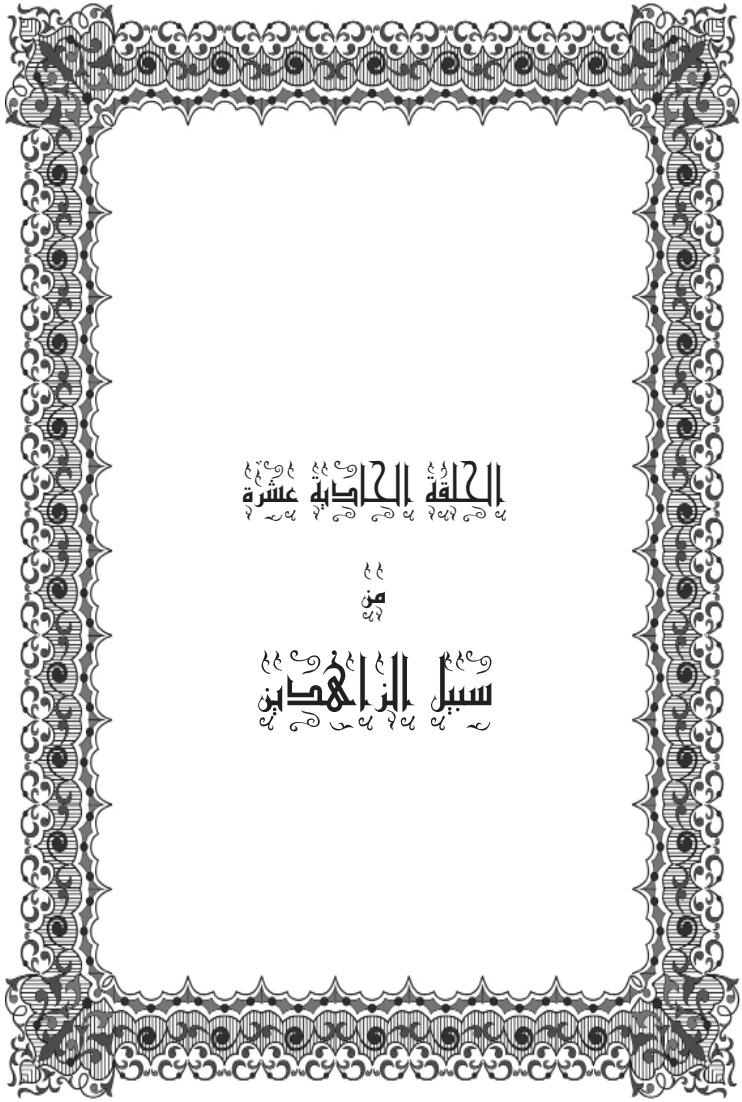

الحلقة الحادية عشرة

من

سبيل الزاهدين

الطلب في الدعاء

يقول الإمام عليه السلام في دعائه:

«اللهم صلِّ على محمد وآله، وحَلنّي بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتقين في بسط العدل، وكظم الغيظ، وإطفاء النائرة، وضمّ أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين، وإفشاء العارفة، وستر العائبة، ولين العريكة، وخفض الجناح، وحسن السيرة، وسكون الريح».

قد يحسّ الإنسان بالاحتياج من أعماقه فيكون طلبه حين يدعو الله تعالى طلباً حقيقياً، وقد لا يحسّ بالاحتياج، فلا يكون طلبه حقيقيّاً، أي ليس صادراً من الأعماق.

فالمبتلى بمرض خطير – أو ألم شديد في بدنه – مثلاً إذا دعا الله تعالى وطلب منه الشفاء، يكون دعاؤه بكلّ وجوده لأنّه يحسّ بالاحتياج، وكذلك الذي يعاني من تثاقل الديون عليه أو زحمة الهموم، فهذا أيضاً عندما يدعو الله تعالى ويلتمس منه الخلاص في قضاء ديونه وجلي همّه فإنّما يدعو عن إحساس بالاحتياج فيكون دعاؤه حقيقياً، لأنّه يصدر من أعماقه.

ولنقرّب الموضوع اكثر بمثال آخر: فلو فرضنا شخصين كلّ منهما مدين لغيره بالمال، ولكن المدين الأول لم يكن دائنه يضغط عليه، لأي سبب كان، كما لو كان قريبه أو صديقه، خلافاً للثاني، فإنّ الدائن كان يهدّده إن لم يسدّد المبلغ حتّى غدٍ ربما يضطرّه لأن يرفع ضدّه شكوى تؤدّي به إلى السجن، فكلا الشخصين يدعو ويقول: «اللهم اقضِ عنّا الدَّين» ولكن دعاء الثاني أعمق لأنّه يصدر عن الإحساس بالحاجة ولا حيلة له لقضائها إلاّ عن طريق الدعاء، فيلحّ في الدعاء والطلب.

والإلحاح في الطلب من أسباب استجابة الدعاء، والمستفاد من الروايات بل صريح بعضها أنّه كلّما كان الدعاء صادراً من أعماق القلب كان أقرب إلى الإجابة، فلنحاول أن نوجد في أنفسنا إذاً حالة الإحساس بالإحتياج دائماً، ليكون دعاؤنا صادراً من أعماق قلوبنا، فيكون قريباً من الإجابة.

زينة المتّقين:ـ

يقول الإمام: «**وألبسني زينة المتّقين**» أي ما يلبسونه، فما هو لباس المتّقين؟ ليس المقصود اللباس الذي يستر البدن، لأنّ اللباس الواقعي هو لباس التقوى. وكما أنّ اللباس المادّي يستر البدن ويغطّي عيوب

الجسم، فإنّ لباس المتّقين هو اللباس الذي يستر الشهوات فلا تبرز إلى الوجود، فهي تمثّل مركز المشكلات والقبائح في النفس الإنسانية، فإنّ المتّقي له شهوات أيضاً كبقية الناس إلا أنه يعيش في تجاذب دائم بينها وبين عقله، بيد أنّ غير المتّقي شهواته وقبائحه ظاهرة والسوء منه بادٍ في عينيه ولسانه وعمله، أمّا المتّقي فشهواته وسوءاته مستورة قد سترها بلباس التقوى وهو لباس متين ورصين وليس رثّاً ولا وسخاً ولا ممزّقاً بل هو لباس كلّه زينة. وكأن الإمام عليه السلام يشير إلى هذا المعنى موافقاً لما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿**وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾[1].

التأمّل في مفردات الدعاء:ـ

ثمّ يستطرد الإمام عليه السلام لبيان مفردات حلية الصالحين وزينة المتّقين فيعدّد مجموعة من الصفات، وكلّ واحدة من هذه المفردات تنطوي على عالم من المعاني التي لا يستوعبها أمثالنا إلاّ بمقدار، الأمر الذي يحتّم على أهل العلم المتابعة الجادّة والتأمل والتدقيق في ما تنطوي عليه هذه الكلمات الخالدة، وواحدة من طرق التدقيق تكمن في تتبّع آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والتدبّر فيها، بحثاً عن الموارد التي استعملت فيها لتكون الاستفادة أعمق.

---

(١) الأعراف/ ٢٦

بسط العدل

البسط في اللغة مقابل القبض، قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**﴾[1]. وهذا تعبير أدبّي رفيع جدّاً، في إشارة إلى أن عنق الإنسان مساوٍ لحياته. قال تعالى: ﴿**فَكُّ رَقَبَةٍ**﴾[2] والمقصود تحرير إنسان. والكريم يصوّر البخيل عندما يريد أن ينفق أنه يكون كمن يراد قطع عنقه، وهذا يعني أنّ البخيل يجعل المال كلّ حياته.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سئل عن تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**﴾ ففتح كفّه وأفرج بين أصابعه وقال: «**لا تفعل هكذا. ثمّ ضمّ عليه السلام أصابعه بعضها إلى بعض وقال: بل اجعلها هكذا، فلا تقبض أصابعك إلى كفّك حتّى لا يخرج منها شيء ولا تفتح كفّيك وتفرج بين أصابعك حتّى لا يبقى لك فيها شيء، فلا إفراط ولا تفريط، بل حدّ وسط، فما وقع من كفّك أو خرج فدعه يخرج، وما بقي فيه فدعه يبقى لك ولا تفرّط به**».

(١) الإسراء/ ٢٩
(٢)البلد/ ١٣

إذا اتّضح وتبين لكم ذلك نقول: إذا كانت الآية الكريمة تقول في الإنفاق: ﴿**وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**﴾[1] فإنّ الإمام هنا في العدل مع البسط كلّ البسط، فقال: «**في بسط العدل**» أي مطلقاً، لأنّ العدل ليس فيه إفراط وتفريط بل كلّه ممدوح مأجور فعله، ومن ثم فعلى الإنسان أن يسعى لبسط العدل ونشره مهما وسعه.

والعدل يعني وضع الشيء في موضعه، والله سبحانه وتعالى قد سنّ العدل في الأمور التكوينية من الأرض والسماء والماء والهواء والحيوان والنبات ووو... ولكن جعل نسبة ضئيلة من العدل اختيارياً بيد الإنسان، أي أنّ الإنسان بإمكانه أن يعدل فيها أو لا يعدل، وإن كان المطلوب منه شرعاً أن يعدل بل يقيم العدل أينما استوجب، ومع ذلك نرى الذين يعدلون قليلين.

أجل، إنّ العدل قائم في الأُمور التكوينية كلّها، ففي الحديث: «**بالعدل قامت السماوات**». فهذه الشمس الهائلة والأرض والنجوم والسدم بل الوجود كله يجري بتمام العدل، فلا إفراط ولا تفريط ولو بمقدار أنملة واحدة، وهكذا الأمر لو نظرنا إلى أبداننا نجد ملايين

(١) الإسراء/ ٢٩

الخلايا كلّها تسير بالعدل. ومعروف في الطب القديم والحديث أنّ الإنسان إذا كان متوازن المزاج لا يمرض، لمتانة القوة الدفاعية فيه، ورفع المقتضي لإصابته بالمرض. علاوة على ما تقدم فإن في العدل تتجلى زينة المتقين بأبهى صورها، لذلك عدّه الإمام عليه السلام من مفرداتها.

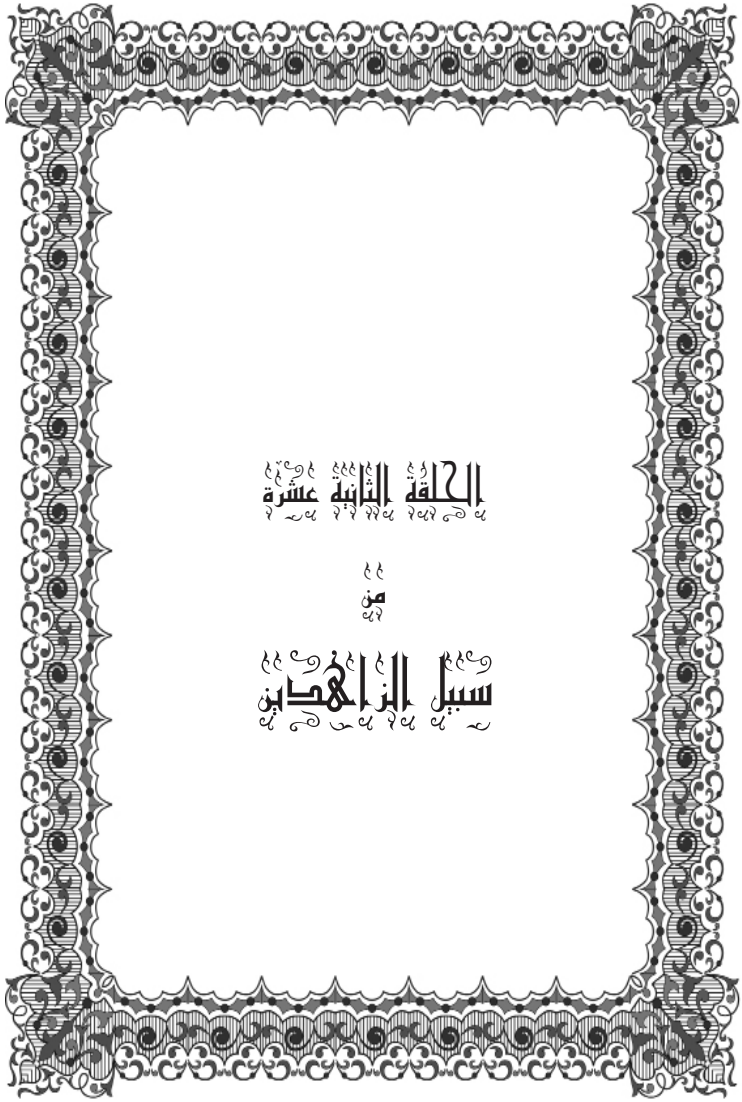

الحلقة الثانية عشرة

من

سبيل الزاهدين

من يبسط العدل؟

الجواب: نحن المؤمنين ينبغي أن نبسط العدل، وأن نبدأ بأنفسنا، فنعدل في أكلنا وشربنا ونعدل مع ذوينا وأصدقائنا وأقربائنا، قولاً وعملاً، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**كونوا دعاة الناس بأعمالكم ولا تكونوا دعاة بألسنتكم**» وفي حديث آخر: «**كونوا دعاة بغير ألسنتكم**»، وهناك حديث خاصّ بأهل العلم، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**أزهد الناس في العالِم بنوه ثم قرابته**» وقد يكون ذلك في بعض الموارد، لما يشاهدون من الفجوة بين قوله وعمله فيزهدون فيه، لهذا ترى أن أهل البيت عليهم السلام أولوا أبلغ العناية في ضرورة مطابقة الأعمال للأقوال، فتجد من كان قريباً منهم مشدوداً في السعي نحو ما يرشدون اليه أكثر، لما يرى من صدقهم ومطابقة سيرتهم العملية والقولية ووفرة سعيهم لله تعالى.

كظم الغيظ وحدوده:ـ

ومن مفردات زينة المتّقين أيضاً كظم الغيظ، ففي النفس شهوات لها ألسنة من لهب، تستعر نيرانها بمجرّد أن تثار بأدنى إثارة. فلو قال شخص لغير المتّقي كلمات وظنّها لا تناسبه فإنّ أثر الغيظ وألسنة نار

الغضب تظهر على وجهه ولسانه وتصرّفاته، أمّا المتّقي فيستر غيظه ويكظمه بلباس التقوى.

وإذا قيل لزيد من الناس: لِمَ لَمَ تكظم غيظك؟ يقول: لكلّ شيء حدود، فكم أصبر، وإلى متى أكظم غيظي؟

نقول في جوابه: صحيح أنّ لكل: شيء حدوداً، ولكن من الذي يعيّن الحدود؟ هل نحن الذين نعيّن الحدود أم الأئمّة المعصومون من أهل البيت عليهم السلام أجمعين؟

أليس الإمام السجّاد عليه السلام إمامنا؟ أوليس المفترض أن يقتدي كلّ مأموم بإمامه؟

فلنصمّم على أن نقتدي بالإمام السجّاد عليه السلام ونتعلّم منه حدود كظم الغيظ من خلال سيرته عليه السلام.

روي: «**إن قوماً كانوا عند علي بن الحسين عليهما السلام فاستعجل خادماً بشواء في التنور، فأقبل به مسرعاً، فسقط السفود من يده على ولد علي بن الحسين عليهما السلام فأصاب رأسه فقتله، فوثب علي بن الحسين عليهما السلام، فلما رأى ابنه ميتاً قال للغلام: أنت حر لوجه الله تعالى، أما إنك لم تتعمّده. ثم أخذ**

في جهاز ابنه».

حقّاً ما أسعد الناس لو ولي حكمهم هؤلاء الأطهار؟! وكم كانوا سيتعلّمون منهم؟!

أوليست هذه القصّة أعظم من جبل ذهب لأنّ جبل الذهب ينفد ويفنى أمّا مضامين هذه القصّة ودورها في بناء الذات فلا تفنى.

ولننظر إلى أنفسنا هل نحن مقتدون بهمﷺ أم نقول: إلى متى نكظم غيظنا؟ ونحن مختلفون مع بعضنا على مبلغ من المال أو على مشكلة صغيرة أو شيء تافه.

إنّ هذه السفاسف التي يختلف عليها الناس غالباً لا سوق لها في الآخرة بل لا سوق لكثير منها في الدنيا أيضاً، ولنعلم أنّ من لا يكظم غيظه تتحطّم أعصابه أكثر ممّن يكظم غيظه، ثمّ يخسر الدنيا والآخرة، أمّا كظم الغيظ ففيه ربح الدنيا والآخرة وهو أمر ممكن وإن كان لا يخلو من صعوبة.

ومن زينة المتّقين أيضاً إطفاء النائرة، فإنّ غير المتّقي إذا عاداه أحد،

إمّا أن يردّ العداء بالعداء، وإمّا أن يسكت في أحسن الأحوال، أمّا المتّقي الذي يرسم الإمام السجّاد عليه السلام لنا صورته فهو لا يكتفي حتّى بالسكوت على من اعتدى عليه، بل يحاول إرضاءه، لأنّه يسعى جاهداً أن لا يدخل شخص مسلم بسببه النار، فيحاول إطفاء ناره ويسرع بإسداء الخير إليه.

روي أنه وقف على الإمام علي بن الحسين عليهما السلام ما رجل من أهل بيته فأسمعه وشتمه، فلم يكلّمه، فلما انصرف قال لجلسائه: «**قد سمعتم ما قال هذا الرجل، وأنا أحبّ أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا ردّي عليه.**

قال: فقالوا له: نفعل، ولقد كنا نحب أن تقول له ونقول.

قال: فأخذ نعليه ومشى وهو يقول: ﴿وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ والْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فعلمنا أنه لا يقول له شيئاً.

قال: فخرج حتى أتى منزل الرجل فصرخ به. فقال: قولوا له: هذا علي بن الحسين.

قال: فخرج إلينا متوثّباً للشرّ وهو لا يشكّ أنه إنما جاءه مكافئاً له على بعض ما كان منه. فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: يا أخي إنك كنت قد

وقفت عليّ آنفاً فقلت وقلت، فإن كنتَ قلتَ ما فيَّ فأستغفرُ الله منه، وإن كنتَ قلتَ ما ليس فيَّ فغفر اللهُ لك.

قال: فقبّل الرجل ما بين عينيه وقال: بل قلتُ فيك ما ليس فيك، وأنا أحقّ به».

فهل هذا العمل والتصرف من الإمام أفضل أم ترك الفرد يموت ناصبياً ويدخل نار جهنّم؟

لا تقل: وما شأني به فليدخل جهنّم، فهذا لا يعدّ اقتداءً بالإمام عليه السلام.

إذاً فلنسأل الله تعالى أن يثبّت أنفسنا على الإقتداء بمن اصطفاهم على خلقه محمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين ونسأله أن يلبسنا زينة المتّقين، فندعو ونعمل ونطبّق ونبدأ أولاً بأنفسنا.

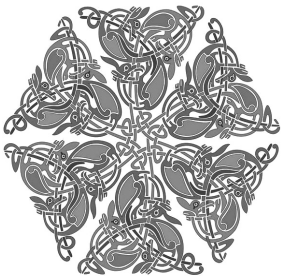

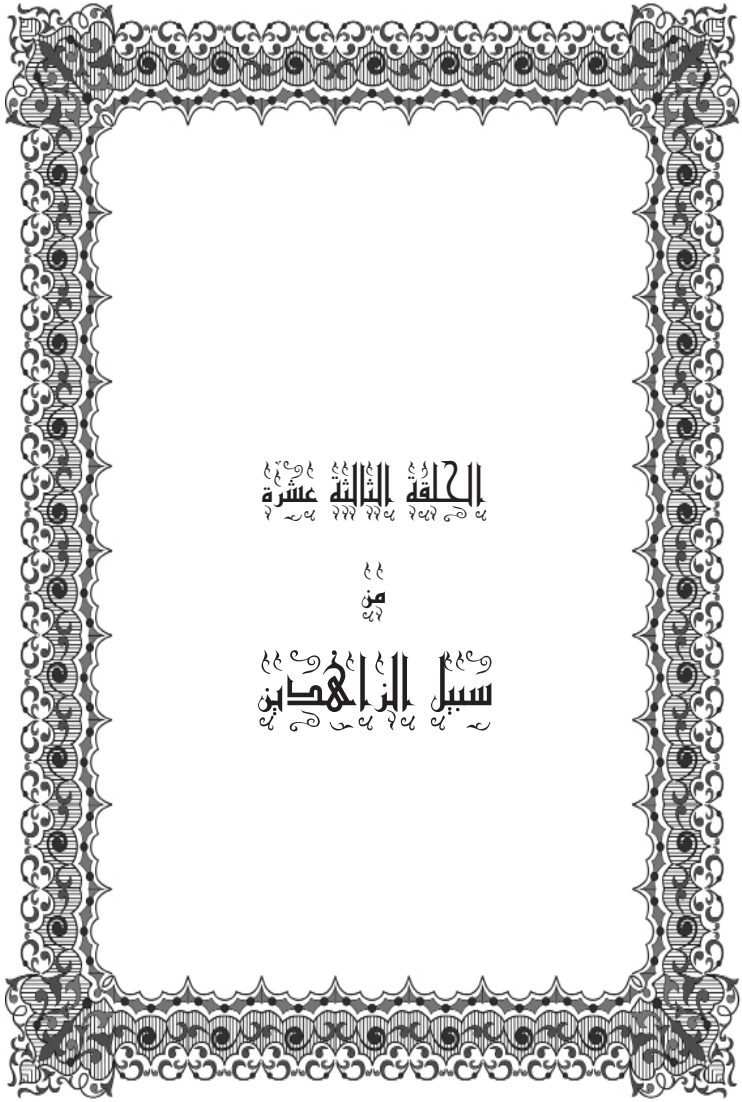

الحلقة الثالثة عشرة

من

سبيل الزاهدين

ضم أهل الفرقة

يدعو الإمام عليه السلام في دعاء مكارم الاخلاق بقوله :

«وحلّني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتّقين في بسط العدل وكظم الغيظ وإطفاء النائرة وضمّ أهل الفُرقة وإصلاح ذات البين».

الفرقة تعني الانفصال، فالناس إذا كانوا مجتمعين على أمر واحد يقال إنّه لا توجد فرقة فيما بينهم، ولكن إذا اعتزل بعضٌ وانفصل عن الآخرين فهنا نقول إنّه حدثت الفرقة. وأهل الفرقة هم الذين ديدنهم الاختلاف والافتراق، ومن حلية الصالح وزينة المتّقي أنّه يحاول أن يجمع ويضمّ حتّى أهل الفرقة أي يعيدهم إلى الصفّ العامّ، والإمام عليه السلام يطلب من الله تعالى ويعلّمنا بدوره أن نطلب منه سبحانه الإعانة في هذا الأمر وهو ضمّ أولئك الذين يفصلون أنفسهم عن الآخرين. هذه الخصلة الأولى.

أمّا الخصلة الثانية التي يطلبها الإمام عليه السلام فهي إصلاح ذات البين، أي بين الإخوة، والزوجين، والأصدقاء، أو بين الأُستاذ وتلميذه، والأب وابنه، والشخص وقريبه ... .

أمّا الذات ففسّرت في الكتب اللغوية بالحقيقة. فبذلك يعني

إصلاح حقيقة البين. وقال بعض الأُدباء: إنّ «ذات» كلمة زائدة ككثير من الكلمات التي تزاد في التعابير اللغوية، خاصّة في اللغة العربية لغرض التأكيد وغيره.

ربّ سائل يسأل: ألا ترجع هاتان الجملتان إلى خصلة واحدة أم يطلب الإمام عليه السلام من الله تعالى خصلتين هنا؟

يقول اللغويون وتبعاً لهم الأُصوليون والفقهاء: إنّ الأصل في الواو المغايرةُ، إلا إذا كانت هناك قرينة على وحدة الأمرين. فمثلاً: لو قيل: جاء زيد وأبو عمر، فالمتبادر للذهن أنّ شخصين جاءا، وليس المقصود أنّ الذي جاء واحد وهو زيد الذي كنيته أبو عمرو. نعم قد تأتي الواو لبيان المعطوف عليه نفسه بتعبير آخر ولكن الأمر بحاجة إلى قرينة.

إذن يقتضي أن يكون «ضمّ أهل الفرقة» و «**إصلاح ذات البين**» أمرين متغايرين، ولكن هذا لا يمنع أن يكون بينهما عموم وخصوص من وجه، ولكن بعض العلماء قالوا: إن «**ضمّ أهل الفرقة**» يتنأول الدائرة الواسعة أي المجتمع، أمّا «**إصلاح ذات البين**» فالمقصود به الدائرة الضيّقة وهي الأُسرة والعشيرة والأقرباء، وهذا له وجه لا بأس

به في نفسه، وقد يستوحى ذلك من كلمة «فرقة» و «بين». وعلى كلّ حال فإنّ من الأُمور التي ينبغي للإنسان المؤمن أن يعنى بها في المجتمع، أي على الصعيد العامّ والواسع، أن يكون ديدنه الحيلولة دون حدوث الفرقة والاختلاف، كما عليه أن يسعى أيضاً من أجل الإصلاح على صعيد العلاقات الاجتماعية الأضيق كالعلاقات بين الإخوة والأقارب والزملاء، فهاتان الخصلتان تعدّان من حلية الصالحين وزينة المتّقين.

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو: هل الإمام السجّاد عليه السلام يدعو للإجتماع وعدم الفرقة دائماً ولنفسيهما من دون نظر إلى الحقّ والباطل؟ حاشا أن يكون الإمام عليه السلام يريد ذلك، لأنّ الإمام السجّاد عدل القرآن، والقرآن يقول: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**﴾[1] وهذا معناه أنّ الأنبياء هم الذين صاروا سبباً لحدوث الاختلاف والفرقة في المجتمع ولكنّه اختلاف من أجل الحقّ، لأنّ الناس كانوا مجتمعين على الضلال والباطل. أجل، الوحدة من الفضائل ولكن إذا كانت في إطار الحقّ والفضيلة وليس في إطار الباطل والرذيلة.

---

(١) البقرة/ ٢١٣

ثمة عبارة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام بحقّ أهل الشام ينبغي الوقوف عندها – كما هو الحال مع كلّ كلمات المعصومين عليهم السلام – فهو يقول مخاطباً أهل العراق: «... **والله لقد أحببت أن يدال هؤلاء القوم عليكم، بإصلاحهم في أرضهم، وفسادكم في أرضكم، وأدائهم الأمانة لمعاوية، وخيانتكم، وبطاعتهم له، ومعصيتكم لي، واجتماعهم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقكم...**». فلا يقال للإمام عليه السلام: ما دام الاجتماع أمراً حسناً فهل يلامون عليه؟ لأنّ التوجّه للباطل إذا كان من فرد واحد فهو ضلالة واحدة، فإذا اتّجه اثنان إلى الباطل فهذه ضلالتان، فإن اتّجهوا ثلاثة صارت ثلاث ضلالات، وهكذا كلّما زيد اجتماع أهل الباطل زاد عدد الضالّين، فأين هو الحسن فيه؟!

فضمّ أهل الفرقة ممدوح ومطلوب إذا كان إلى الحقّ، لأنّ الاجتماع على الحقّ ضروريّ ولو حاد إنسان واحد عنه، فعلى المؤمن أن يسعى لإرجاعه وضمّه، وليس المطلوب الضمّ على أيّة حال.

ولنمثّل بمثال من سيرة أهل البيت عليهم السلام: هناك رسالة مهمّة من الإمام السجّاد عليه السلام إلى الزهري مرويّة في كتب الخاصّة والعامّة.

يقول الإمام عليه السلام في رسالته إلى الزهري: «**وأن تُسأل عما أخذت بإعانتك على ظلم الظُلمة... جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم**». فعمل الإمام هذا هو بحدّ ذاته ضمّ أهل الفرقة مع أنّه يريد تفريقه عن جمع أهل الباطل.

* ولنا في أبيه الإمام الحسين عليه السلام مثل آخر، فإنّ علماء السوء قالوا عنه إنّه شقّ عصا المسلمين، لأنّ يزيد كان حاكماً مسلماً وكان المسلمون يمارسون حياتهم وطقوسهم الدينية ولا وجود لخلاف فيما بينهم ولكن الحسين عليه السلام - بزعمهم - هو الذي أوجد الخلاف، ونقول في جوابهم: إنّ هذا الخلاف والافتراق الذي أوجده الإمام الحسين عليه السلام هو من أهمّ الواجبات بل كان أهمّ الواجبات في زمانه عليه السلام ، فإنّ الافتراق عن حكومة الحقّ - كحكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - هو الضلال بعينه، وههنا يجب السعي لضمّ أهل الفرقة، أمّا إحداث الفرقة في صفوف أهل الباطل فهو من الفضائل والواجبات.

* لقد كان صفوان الجمّال من خيرة أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام ، فأكرى جماله لهارون العبّاسي لسفر الحجّ، فبلغ ذلك الإمام عليه السلام فقال له كلمة عظيمة، قال:«**كلّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً**».

ولاشكّ أنّ هذا تقريظ عظيم من الإمام المعصوم عليه السلام ، ممّا يكشف عن عظمة منزلة صفوان، ولكن الإمام استنكر عليه إكراءه جماله لهارون. فقال صفوان: يابن رسول الله، هذا يريدها للحجّ. فقال له الإمام عليه السلام: «**أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراك؟ قلت: نعم. قال عليه السلام : فمن أحبّ بقاءَهم فهو منهم**».

هذا والإمام كان يعلم أنّ هارون سيعرف السبب، وبالفعل جاء هارون في اليوم الثاني فاعتذر له صفوان بأنّه باعها كلّها.

* وقد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**لا تبنِ لهم مسجداً!**» مع أنّ الإمام يعلم عظمة المسجد والصلاة فيه ولكنه كان يعلم كذلك أنّهم سيتّخذون منه شعاراً لتقوية ظلمهم من خلال إشعار الناس بأنهم أهل تقوى وصلاح، فيلتفّون حولهم في تقوية سلطانهم والدين منهم براء، وإلاّ فإنّ الإمام الصادق عليه السلام هو القائل: «**من بنى مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنّة**».

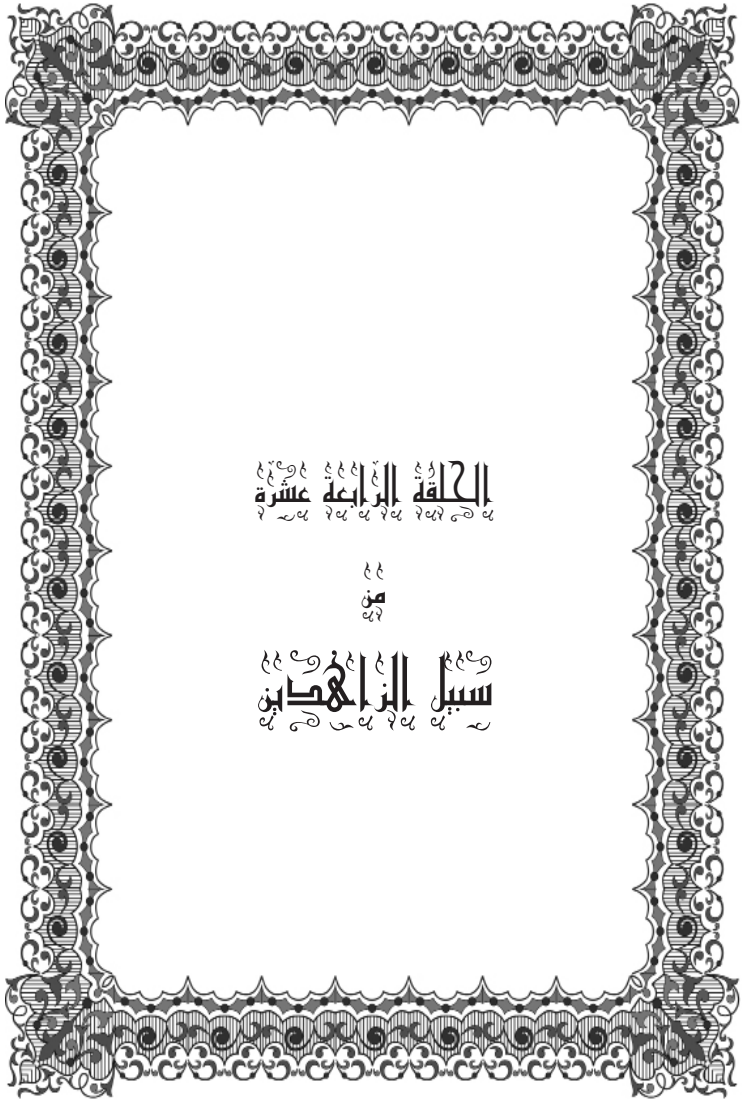

الحلقة الرابعة عشرة

من

سبيل الزاهدين

إصلاح ذات البين

تقدّم الحديث في الحلقة الماضية أنّ ضمّ أهل الفرقة يقع في الدائرة العامّة من المجتمع، أمّا إصلاح ذات البين فالمقصود به الدائرة الأصغر كالعائلة والعشيرة . . .

فلقد روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في إحدى وصاياه: «**أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله، ونظم أموركم، وصلاح ذات بينكم فإنّي سمعت جدكما** صلى الله عليه وآله وسلم**، يقول**: «**صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام**»»أي المستحبّة. وهذه الوصية رويت بإستفاضة إن لم نقل إنّها من المتواترات، ولقد رويت بأسانيد متعدّدة.

وهنا نكتة أدبية لا بأس بالإشارة إليها، وهي أنّه وردت في بعض الأدعية أو الأحاديث عبارة «**إصلاح ذات البين**» فيما وردت في بعض آخر منها عبارة «صلاح ذات البين» والمؤدّى واحد، لأنّ الصلاح إمّا أنّه نتيجة الإصلاح، لأنّك إذا رفعت الفساد وأصلحت بين اثنين فإنّ نتيجة هذا الرفع هو الصلاح، وإمّا أنّه يراد دفع الفساد قبل وقوعه، كما

لو أحسست أنّ خلافاً ما سيحدث بين زيد وعمرو فبادرت إلى عمل ما من شأنه الحيلولة دون وقوع هذا الاختلاف المؤدّي حتماً إلى النزاع وفساد العلاقة فيما بينهما، فقد يطلق على عملك هذا صلاحاً وليس إصلاحاً لأنّه لم يكن ثمّة فساد لتصلحه وإنّما حُلت دون وقوعه من قبيل: الوقاية خير من العلاج.

للإمام الحسن عليه السلام جملة رائعة تنفعنا في مجال «**إصلاح ذات البين**» يقول الإمام عليه السلام لجنادة: «**واعلم أنك تطلب الدنيا والموت يطلبك**» فلو آمن الإنسان بهذه الكلمة وكانت حاضرة عنده دوماً لسهل عليه السعي في طلب الفضائل، ولا يتصارع من أجل حفنة من ركام الدنيا، لأنّه يعلم أنّ كلّ ما يطلبه من الدنيا لا محالة زائل، فإنّ ذكر الموت وحده كفيل بأن يحدّ من الشهوات.

يروى عن شخص قوله جاءني شخص وسألني عن الحجّ فقال: لقد كنت مستطيعاً منذ عشرة أعوام ولم أحجّ، ولكنّي كتبت في وصيتي أن يحجّ أولادي بالنيابة عنّي، فقلت له: إنّ تسويف الحجّ من المحرّمات الكبيرة، وأقنعته بأن يحجّ هو بنفسه، وإن لزمه أن يقترض المال، لأنّه كان مستطيعاً كما تبيّن لي، وأبدى إستعداده وكنّا في شهر ذى القعدة

وودّعته وانصرف.

وبعد أسبوع دعيت للصلاة على جنازته، وعندما وصلت المكان لاحظت أبناءه موجودين هناك وتبيّن لي أنّ الأجل لم يمهله، وقال أبناؤه: لم يكن به شيء ولكن أُصيب بسكتة قلبية. فهمست في أُذن أحدهم أنّ عليهم أن ينفّذوا ما كتبه لهم في وصيته التي أخبرني عنها قبل موته بأسبوع، وذلك بأن يبعثوا شخصاً خلال هذه السنة أي في غضون أيّام أو أسابيع لكي يحجّ نيابة عنه، فهذا يعدّ من أوجب الواجبات.

إن على الإنسان أن يضع الموت نصب عينيه دائماً، فإذا فعل ذلك خفّت حدّة شهواته واستطاع أن يعمل على ضمّ أهل الفرقة وإصلاح ذات البين بنحو أحسن، ولا يكترث للأعذار الواهية. روي في الحديث الشريف: «... **فإنّك لا تدري ما اسمك غداً**».

يقول إمامنا زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام في طيّ دعاء مكارم الأخلاق: «**وإفشاء العارفة وسَتْر العائبة**».

الإفشاء: النشر والإذاعة والإظهار. والعارفة: المعروف، والتاء فيها باعتبار الخصلة، فإفشاء العارفة يعني نشر المعروف.

أما العائبة وهي مؤنث العائب، والتأنيث فيها باعتبار الخصلة أيضاً فهي ضدّ العارفة والمعروف. والسَّتر: الإخفاء، فيكون المعنى: نشر المعروف وعدم ستره وإخفائه، وإخفاء المنكر وعدم إظهاره وإذاعته. وهاتان الخصلتان من صفات الله تعالى أيضاً، ففي الدعاء المرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام: «**يا من أظهر الجميل وستر القبيح**».

أما كيف نقوم بإفشاء العارفة «أي المعروف» وستر العائبة «أي المنكر»؟ فالجواب:

أولاً: بالعمل بالمعروف، والانتهاء عن المنكر، فإن العمل بالمعروف من مصاديق إفشائه وإظهاره، والانتهاء عن المنكر وتجنّبه من مصاديق إماتته وإخفائه.

ثانياً: أن نذكر الذين يعملون المعروف ونشيد بهم، فنقول مثلاً: فلان وقور وفلان ذو خلق وهكذا، فهذا يعدّ نشراً للعارفة، وأن نستر على الذين زلّوا ولا نشيع ذكر ما عملوا من المنكرات والفواحش.

ثالثاً: أن نذكر معروف الآخرين إلينا، ولا نذكر معروفنا إليهم، روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**إذا صنع اليك معروف**

فاذكره، إذا صنعت معروفاً فانسه». أي إذا أحسن إليك شخص، فمن إفشاء العارفة أن تذكر لهذا وذاك من الناس أن فلاناً قد أحسن إليّ. أمّا إذا أحسنت إلى شخصٍ، فليس من العارفة أن تذكر ذلك أينما حللت وارتحلت لتقول مثلاً: «لولاي لكان وضع فلان كذا وكذا» لأن هذا يعدّ من العائبة.

وهاتان الخصلتان من الخصال التي يحتاج التحلي بهما إلى عزم وتصميم وتوكل على الله تعالى.

ونستشهد بنبذة مختصرة للسيدمحمد تقي فقد كان السيد محمد تقي الخونساري. ﵀ مرجعاً للتقليد في مدينة قم المقدسة يوم دخلها السيد البروجردي ﵀ - وكان مرجعاً هو الآخر - ليسكن فيها، وكلاهما كانا من تلامذة المرحوم الآخوند «صاحب الكفاية» ﵀.

ففي إحدى الزيارات المتبادلة بينهما قال السيد الخونساري للسيد البروجردي: لقد درست عندك في النجف الأشرف فأنت أستاذي.

وربما كانت المدة التي تتلمذ فيها السيد الخونساري عند السيد البروجردي قصيرة جداً، ولكن السيد الخونساري كان يرى أن من

إفشاء العارفة وأداء حق التعليم أن يذكر ذلك ويبيّنه، وإن كان مرجعاً للتقليد.

ومن هنا نعلم أن إفشاء العارفة بحاجة إلى عزم وإيثار وايمان وتوكّل، فإن النفس لا تدع الإنسان عادة يتنازل أمام أصدقائه ومعارفه.

ففي مثل هذه الحالة، ترى ماذا سيكون موقف السيد البروجردي تجاه ما أعلنه السيد الخونساري؟ وماذا سيكون ردّه عليه؟ هل يؤيد كلام السيد الخونساري وهو يعلم أنه ليس من العارفة أن يذكر الإنسان إحسانه إلى غيره؟ أم ينكر الحقيقة التي أظهرها السيد الخونساري؟ لذلك بادر السيد البروجردي إلى حلّ وسط، فجعل نفسه كمن لا يتذكر، تخلّصاً من حراجة الموقف. ولكن السيد الخونساري أعاد الكلام ثانية وأكّده، فقال السيد البروجردي: لعلي لا أتذكّر. فقال السيد الخونساري: إن من حقّي أن لا أنسى، ومن حقّكم أن لا تتذكّروا، لأنّي قلّما أجد استاذاً مثلكم، أما أنتم فما أكثر التلاميذ الذين درسوا عندكم!.

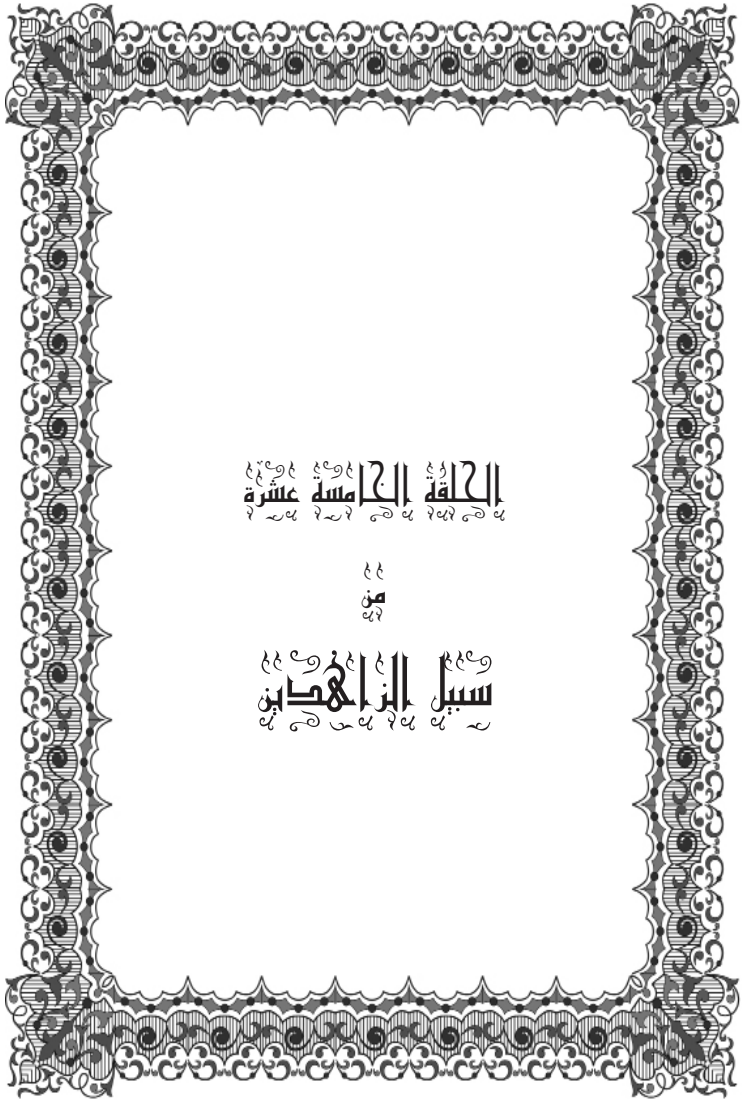

الحلقة الخامسة عشرة

من

سبيل الزاهدين

ستر العائبة

ينبغي لنا أن نتحلّى بحلية الصالحين في إفشاء العارفة كما هو الحال في ذكر معروف الناس وأعمالهم الخيّرة فكذلك يجب علينا الاقتداء بهم في ستر العائبة وإخفاء عيوب الآخرين فضلاً عن عيوب أنفسنا، لأن ذكرها يعدّ من العائبة أيضاً.

ومن يراجع الأحكام الجنائية في الإسلام يلاحظ بوضوح تأكيد الإسلام لهذا المبدأ، في حين لا تجد هذا في القوانين الوضيعة أبداً.

فرغم أن إقرار العقلاء على أنفسهم حجّة أي نافذ ومقبول، ولكن الشريعة الإسلامية لا تكتفي بإقرار المجرم على نفسه مرة واحدة دائماً، بل ثمة موارد لا تكثرت بهذا الإقرار ما لم يُكرّر أربع مرات.

تحكي الروايات في موارد عديدة أن أشخاصاً كانوا يأتون إلى النبيﷺ ليعترفوا له بأنهم قد ارتكبوا إحدى المعاصي التي تستوجب إقامة الحدّ عليهم كالزنا مثلاً، ولكن النبيﷺ كان يعرض عنهم كأن يُعرض بوجهه الشريف عنهم أو ما شابه ذلك، لكي يمهل المذنب ويدفعه على التراجع.

فمن باب المثال: يروي احدهم كان السيد أحمد الروحاني القمي رحمه الله عالماً مجتهداً وخطيباً بارعاً يرتقي المنبر، سمعت منه بعض القصص الغنية بالمواعظ والعبر، وقد حكى مرة فقال:

إتصل بي في أحد الأيام شخص وطلب مني أن أحضر لتشييع جنازة أحد المؤمنين، فاعتذرت منه وقلت له: إنني لا أعرف المتوفى!

وربما كانت لدى السيد الروحاني التزامات أخرى كان يراها أهمّ، وإلا فإن تشييع المؤمن أمر قد حثّت عليه الروايات كثيراً، ولا يشترط فيه معرفة المتوفى – فقال لي: ولكنه إنسان مؤمن، فأرجو أن تحاول حضور تشييعه وإن لم تعرفه.

يقول السيد الروحاني: فوافقت بعد ذلك، ولما حضرت التشييع لفت إنتباهي شخص من المشيّعين يبكي بكاءً مرّاً، مع أنه لم يكن من ذوي أقرباء الميت، لأرى أحداً يقدّم له التعازي، وعندما اقتربت منه سألته: هل أنت ابن المرحوم؟ فقال: لا. قلت: فمن أقربائه؟ قال: لا. قلت: فكيف هذا البكاء عليه، وما هو السبب؟ قال: لذلك قصّة سأحدثك عنها بعد إنتهاء التشييع.

وبعد إنتهاء مراسم التشييع جلست أستمع إلى قصّته، فقال: كنت رجلاً فقيراً ومعيلاً وأخجل أن أمدّ يدي إلى أحد، ولم يكن المال الذي أكسبه يكفي لمعيشتي وعائلتي، فقد كنت استأجرت لهم غرفة في مكان متواضع وبأجرة زهيدةٍ، وعندما طالبني المؤجّر بالزيادة، اضطررت لنقل عائلتي إلى مكان آخر أزهد منه، وكنت أغيّر مكاني كل سنة للسبب ذاته، فمكثت على هذه الحال أعاني من شظف العيش وصعوبة الحياة، حتى اتفق في أحد الأيام أن التقيت بهذا الرجل، ولكن أيّ لقاء؟!

كنت قد دخلت المسجد لأداء الصلاة، وكانت الجماعة منعقدة والصفوف متراصّة، ولم أجد مكاناً بين الصفوف فوقفت بمفردي خلف الصفوف، وإذا بهذا الرجل الذي شيّعنا جنازته قد جاء ولم أكن أعرفه قبل ذلك فوقف بجانبي، وقبل أن يكبّر تكبيرة الإحرام أفرغ ما في جيبه ووضعه أمامه لعلّه كان يلتزم بالآداب الإسلامية في هذا المجال، فثمة أشياء يكره للمصلي حملها أثناء الصلاة ثم التحق بالمأمومين لأداء صلاة الجماعة وكانوا في حالة الركوع، فلفت إنتباهي أن من بين الأشياء التي وضعها أمامه خاتماً من ذهب، وفجأة قفزت إلى ذهني فكرة سرقته، مع أني لم أكن قد تجرأت يوماً للسرقة قبل ذلك – وكنت في ذلك اليوم أمرّ في أسوأ حالاتي الماديّة، حتى أنه لم يكن عندي

ما أبتاع به طعاماً لعائلتي فبقيت متردداً لحظات أحدّث نفسي وتحدّثني، وأجذبها وتجذبني، أأسرقه أم لا؟

وأخيراً جذبتني فطاوعتها على سرقته وبدأت أخطّط لذلك وأراقب الرجل هل هو منتبه للأشياء التي وضعها أمامه، أم هو غارق في الصلاة ليس ملتفتاً لشيء سواها؟ فرأيته غارقاً في صلاته، فقرّرت أن أشرع بسرقة الخاتم حالما نهوي إلى السجود لأن المسافة بين موضعي سجودنا لم يكن كثيراً، وهذا لا يتطلّب مني سوى أن أسبقه في رفع رأسي من السجود لكي أضع يدي على الخاتم قبل أن يرفع هو رأسه ثم أسحبه في خفّة وأضعه في جيبي وأواصل صلاتي لئلا ألفت انتباهه فضلاً عن غيره، ثم أغادر بمجرد أن تنتهي الصلاة ولكني لم أجرؤ على القيام بذلك في سجود الركعة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة، حتى بلغنا السجدة الثانية من الركعة الرابعة والأخيرة، وفي تلك اللحظة قرّرت أن أقوم بالمجازفة مهما كلّف الأمر، وفعلاً أنجزت الأمر أخيراً، ووضعت يدي على الخاتم وسحبتُهُ، ووضعتُ يدي على رجلي، إلا أنني كنت متوجّساً خيفة علّه قد رآني، فصرت أرقبه باختلاس فرأيته كأنّه غير منتبه ولم يبد أيّ رد فعل، ولكن مع ذلك بدأت دقّات قلبي تتسارع وبدأت أفكّر كيف أفرّ بالخاتم إذا إنتهت الصلاة، وبينما الأفكار كانت

تمزّقني نفذ إلى سمعي صوت الإمام قائلاً: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ولما هممت بالقيام وضع الرجل يده على يدي وقال لي: الخاتم لك!! ولكن قل لي: لماذا فعلت فعلتك هذهِ؟ وعندما سمعته يقول لي: «الخاتم لك» اطمأننت قليلاً وهدأ قلبي وقلت له: صدّقني إنها المرة الأولى وإني لم أسرق قبلها في حياتي قطّ. فقال: هذا بادٍ عليك لأن وجهك مصفرّ ويديك ترتعشان وبدنك يرتجف، فأخبرني عن شأنك؟ يقول: فقلت له: أنا رجل معيل وقد أضرّ بي الفقر، حتى بلغ بي الحال أن لا أقدر على تأمين قوت أهلي. فقال لي: الخاتم لك ولكن إياك أن تبيعه بثمن بخس.

وأضاف: أنا رجل غني وجديد عهد بالزواج، وقد اشتريت هذا الخاتم لأقدّمه هدية لزوجتي، ولكن لا بأس سأشتري لها غيره، ولكني أنصحك أولاً أن لا تفرّط به وتعرف قدره لئلا يغشّوك. وثانياً أن لا تتفاجأ فيما إذا أصررت على بيعه حين تذهب إلى بائع الذهب لأنه ربما ينكر أن يكون هذا الخاتم لك، واذا ما حصل هذا ولكي تتخلّص من مساءلته قل له: إن فلاناً وذكر لي اسمه يعرفني وكان الأمر كما أخبرني بالفعل، فعندما أعطيته بائع الذهب أخذ ينظر إليه وينظر إليّ ثم قال: من أين أتيت بهذا الخاتم؟! قلت: هو خاتمي. قال: ليس خاتمك!!

قلت: إن كنت تشتريه فادفع لي ثمنه وإلا فادفعه لي لكي أنصرف. قال: لا أدفع ثمنه ولا أسلّمه لك إلا في مركز الشرطة. فقلت له: إن فلاناً يعرفني ويعرف أن هذا الخاتم لي. ولكنه لم يقتنع وطلب مني أن أحضره لكي يشهد لي عنده. وبالفعل حضر الرجل وشهد عند بائع الذهب أنه يعرفني وأن الخاتم خاتمي، فأعطاني بائع الذهب حينها ثمنه وخلّى سبيلي.

ولكن هذا الرجل صاحب الخاتم لم يتركني بل لحقني وقال لي: ولكن قل لي ماذا ستصنع إذا نفد ثمن الخاتم؟

فلم أجد جواباً حينها. ولما عرف حيرتي سلّمني مبلغاً مناسباً من المال واقترح عليّ أن أشتري به بيتاً صغيراً في منطقة مناسبة، وعندما وافقت على اقتراحه لم يتركني أيضاً بل ظل يبحث معي حتى وجد لي بنفسه منزلاً يتكون من طابقين وقال لي: اسكن في أحدهما واعمل على تأجير الطابق الثاني لكي تستفيد من عائد إجارته في تمشية أمورك المعاشية حتى تجد عملاً يسدّ الحاجة.

ومرّت عليّ السنوات بعد ذلك وقد خفّ ثقل الماضي عني ولم يعد

يقلقني شيء من ضنك العيش الذي كنت أعاني. أفلا ترى أن من حقّه علي أن أبكيه من كلّ قلبي، إزاء احسانه لي، كيف لا وهو الذي ستر عليّ العائبة ولم يحدّث أحداً بصنيعه هذا وكرمه إليّ؟!

أُنظروا كيف أن ستر العائبة من قبل هذا الرجل التاجر أخذت بيد إنسان كان على شفير السقوط في الهاوية، فربما لو كان هذا الرجل قد صاح به ونهره وأذاع به أثناء سرقته الخاتم لسقطت شخصيته وانهارت كرامته ولم يبال بعدها بما سيؤول إليه أمره، لسقوطه عن أعين الناس، ولتحوّل من إنسان بسيط إلى سارق محترف يضرّ نفسه والمجتمع.

نسأل الله سبحانه وتعالى ببركة رسول الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين أن يوفّقنا للتحلي بهاتين الخلصلتين «**إفشاء العارفة، وستر العائبة**» اللتين هما من حلية الصالحين وزينة المتقين.

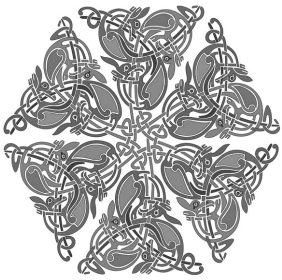

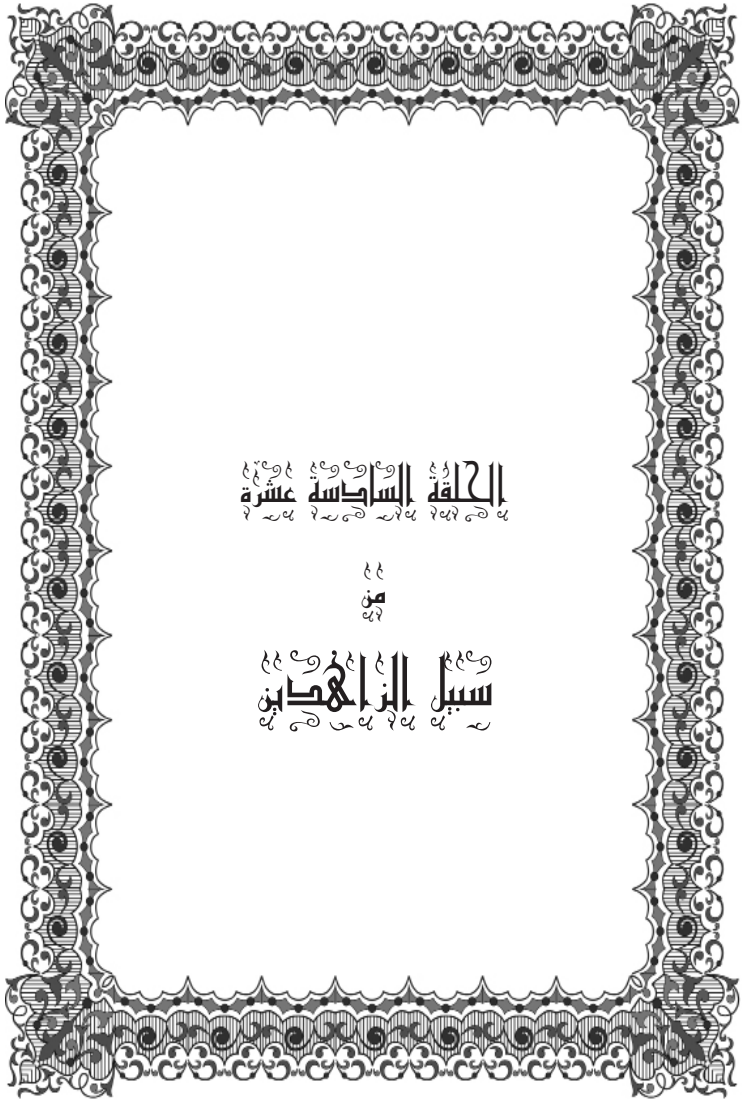

الحلقة السادسة عشرة

من

سبيل الزاهدين

ما المقصود بلين العريكة؟

يقول إمامنا زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام في فقرة اخرى من فقرات دعاء مكارم الأخلاق: «**ولين العريكة**»

العريكة: تعني النفس والخلق، والمستفاد من إستعمالاتها على لسان الروايات طبيعة المعاشرة مع الآخرين، لأن العرك هو الدلك والتحمل، يقال: عرك الأديم أي دلك الجلد.

وحسب هذا الدعاء الشريف، وكذلك من وجهة نظر الإسلام ومنطق أهل البيت عليهم السلام، فإن المطلوب من الإنسان المؤمن أن يكون ليّن العريكة، أي سلس الخُلق في المعاشرة مع الناس.

ولا شك أن هذه الفضيلة حالها حال سائر الفضائل الأخلاقية تكون على مراحل ودرجات ومراتب، منها الصعب ومنها السهل ومنها الصعب جداً أو السهل جداً، كما أن مراتبها عموماً تنقسم إلى قسمين: فمنها ما هو بالطبع، أي ما جُبل عليه الإنسان، ومنها ما هو بالتطبّع، أي بالأخذ والإكتساب، أو ما عُبّر عنه في بعض الروايات بالنيّة «**أي أن يروّض ويحمّل الإنسان نفسه عليها ويتصنّعها حتى يكتسبها**».

فمن لم يكن ليّن العريكة أو كان في الدرجات النازلة من هذه الخصلة فهو كالصخرة التي يصعب التأثير فيها، أما ليّن العريكة أو من كان في الدرجات العليا منها فهو كالماء يأخذ شكل كلّ شيء يحتويه.

فمن الناس من يكون كالصخر شديداً، ومنهم من يكون كالماء سلساً منقاداً، ولا شك أن الذي يتمتع بنفس شديدة العريكة كالصخر يصعب عليه تحويلها إلى نفس ليّنة العريكة لحملها على تحقيق المعالي والمكارم والفضائل، ولكنها صعوبة يمكن تحمّلها والتغلّب عليها بالرياضة والتطبع في سبيل التوفر على هذه الخصال والاتصاف بها في الأقوال والأفعال، في السرّاء والضرّاء، والشباب والشيوخة، والسفر والحضر، مع الذات والأهل والجيران والأصدقاء بل حتى مع الأعداء.

لا جرم أن صقل الذات قضية صعبة للغاية، غير أنه لا بد للمؤمن من ذلك، ولا بديل له عن إنجاز هذه المهمة الضرورية، لأن كل إنسان تواجهه في الحياة عقبات وصعوبات قد يشيب الطفل من بعضها، ولكن لا بد له من تجاوزها لئلا يتحسر على عدم التحمل في يوم لا ينفع فيه حسرة ولا ندم.

ألم الحسرة على تفويت الفرصة:ـ

لقد روي أن الحسرة تعمّ جميع الخلق في يوم القيامة بمن فيهم المؤمنون، لأنهم سيتحسرون على عدم مضاعفة جهودهم في الإكثار من العمل الصالح في الحياة الدنيا ليزدادوا إلى أجرهم أجراً، لذا فواحدة من مسميات يوم القيامة هو يوم الحسرة والندامة.

وليست الحسرة في الآخرة كما هي في الدنيا، لأن حسرات الدنيا قليل مكثها، ولابد أن تنقضي على كل حالٍ حين تزول أسبابها، أما حسرات القيامة فطويل مكثها وقد تستغرق أحقاباً بل ربما تستمرّ إلى الأبد كما هو الحال مع الخالدين في النار.

فإذا كانت الحسرة على تفويت الفرصة تؤذي الإنسان في الحياة الدنيا فكيف به في يوم القيامة الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[1]؟

نقل أحد العلماء فقال:

كنت جالساً في صحن مرقد أمير المؤمنين عليه السلام في النجف الأشرف مع زميل لي كان مرجعاً دينياً كبيراً حينذاك، ثم توفّاه الله تعالى إلى رحمته

(١) الشعراء/ ٨٨-٨٩

وكنّا نتداول بعض البحوث العلمية، إذ مرّ من أمامنا سقّاء يوزّع الماء من أجل الثواب وكسب بعض المال ممن يتطوّع بتقديمه له، وكان رجلاً كبير السنّ يحمل جرّة الماء بصعوبة.

فقال لي زميلي المرجع رحمه الله هل ترى هذا السقّاء؟ لقد كنّا معاً زميلين في الدراسة قبل ثلاثين عاماً، وكان يمتاز بالذكاء، ولكنه توقّف عن مواصلة الدراسة بسبب ضغوط الحياة، فلم يقاوم، فترك الدرس واتخذ مهنة السقاية للزائرين بدلاً عنه لعله يحرز جانباً من تكاليف معيشته!!

ثم قال الناقل:

فاصطحبني زميلي رحمه الله ونهضنا إليه لنسأله عن حاله، فقال لنا بعد أن تذكّر زميلي: إنني أتحسّر وأتأسف ليلي مع نهاري على قلّة صبري وعدم تحمّلي بضع سنوات من الصعوبة حتى استبدلت الأدنى بالذي هو خير!!

ومن هذا كله نستنتج: إن الحسرة في الحياة الدنيا تنتهي خلال سنة أو سنوات معدودة، ونادراً ما تستغرق العمر كله، ولكن حسرة الدار الآخرة قد تكون أبدية ولا حيلة للإنسان حينها في التخلص منها البتّة.

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وآله قدوة.

كان رسول الله ﷺ هو القمّة في كلّ الفضائل والأخلاق، كيف لا، وقد وصفه ربّ العرش بقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[1] وقال تعالى أيضاً: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[2].

وقال في وصفه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**وألينهم عريكة**».

فمن لين عريكته ﷺ ستره للغالّ وعدم تعريفه للنّاس رغم علمه به، ولا آخذ من اتّهمه كذباً وزوراً.

وخلاصة الحديث: حريّ بنا أن ندعو الله سبحانه وتعالى بأن يمنحنا هذه الخصلة، ولا ينبغي أن يُتصور بأن الإنسان إذا ما كان ليّن العريكة عُصر أو أكِل، أما إذا كان صلباً جلب احترام الناس وهيبتهم له، بل العكس فإن الإنسان إذا كان ليّن العريكة أمكنه امتصاص الأزمات، كما أن المؤمنين إذا تحلّوا بهذه الخصلة أمكنهم أيضاً أن يكونوا دعاة للدين بصورة عملية ويكونوا خير مصداق للحديث الشريف المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم**».

(١) القلم/ ٤
(٢) آل عمران/ ١٥٩

أجل إن الدعوة العملية قد لا تكون سريعة الإستجابة على الفور، ولكنها ستكون عميقة التأثير تؤتي أكلها ولو بعد حين، كما أن التوفر على خصلة لين العريكة قد يكون أمراً صعباً ويحتاج إلى ترويض، ولكنها إذا توفرت فإنها تكون أضخم من الجبال في عظمتها وعمق تأثيرها في المجتمع.

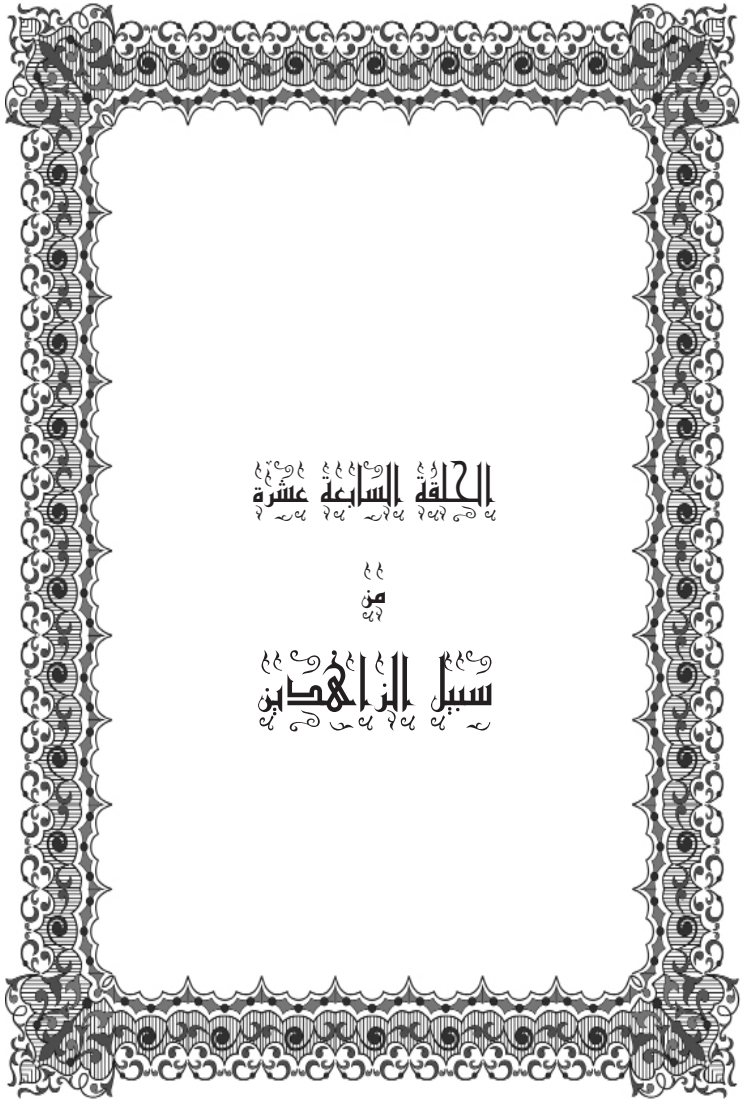

الحلقة السابعة عشرة

من

سبيل الزاهدين

خفض الجناح

يقول إمامنا زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق: «**وخفض الجناح**».

رب سائل يسأل: ما معنى أن يكون للإنسان جناح فيخفضه؟

للإجابة على ذلك يمكن القول: إن ما يستفيده الطائر من جناحيه متوفر لدى الإنسان أيضاً ولكن بصفة أخرى. وكما أن الجناح يعدّ مصدر قوة ووسيلة يستعين بها الطير على الطيران وأن الطير القويّ الجناح يحلّق شاهقاً في جوّ السماء، بينما الطائر الضعيف الجناح لا يقوى على الطيران إلا قليلاً وهابطاً فكذلك الإنسان جناحه قواه التي يستعين بها في خضمّ الحياة. فالعلم والمال والعضلات والذكاء والعشيرة وغيرها، كلها أجنحة يستطيع الإنسان التحليق بها في حياته، فعن طريق هذه الأجنحة يستطيع المرء أن يعي الأشياء ويبيع ويشتري ويبطش أو يعفو، ويحفظ من المعلومات ويستنتج من التحاليل أو يكون مرهوب الجانب. فهذه كلها بمثابة أجنحة لابن آدم تمكّنه من الوصول إلى أهدافه.

ويطلق الجناح لغة على الميل والكنف. فمن لا يملك مالاً فليس له

كنف مال، والجاهل ليس له كنف علم.

ولا شك أن العلم الذي يتمتع به الإنسان إنما هو كسائر المواهب والقدرات نعمة تكرّم الله تعالى بها عليه، لذا يجدر بالإنسان أن يحسن التصرف بهذه النعمة كما في غيرها، فيُنزل جناح علمه ويخفضه، وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الأجنحة، شريطة أن يكون ذلك في رضا الله تعالى.

إن الإمام زين العابدين عليه السلام يسأل الله تعالى في هذا الدعاء أموراً تعدّ من حلية الصالحين وزينة المتقين، منها خفض الجناح، حيث يدعو الله تعالى أن يمكّنه من الإمساك به والسيطرة عليه وخفضه عند مواضع رضاه تعالى اسمه، فلا يتكبر بعلمه على الناس، ولا يبطر بماله وجاهه، ولا يطغى بقوته البدنية، ولا يسيء استخدام ذكائه، ولا يتعصب لعشيرته وذوي قرابته، كما لا يستميلهم في الباطل على خصمه.

وهذا مدعاة لأن يقتفي المؤمنون أثر الإمام السجاد عليه السلام لأنه الأسوة والقدوة لهم، فيسعوا في التحلي بهذه الخصلة بمعونة الله تعالى.

خفض الجناح نيّة وسجيّة:ـ

صحيح أن خفض الجناح أمر صعب جداً، إلا أنه ممكن تحقيقه.

روي عن إسحاق بن عمار عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**إن الخلق**

منحة يمنحها الله خلقه فمنه سجيّة ومنه نيّة». قال إسحاق: فقلت: فأيّهما أفضل؟ قال عليه السلام: «**صاحب السجيّة هو مجبول لا يستطيع غيره، وصاحب النيّة يصبر على الطاعة تصبّراً فهو أفضلهما**».

فبادئ ذي بدء، يكشف الإمام الباقر عليه السلام هنا أنّ الخلق الحسن ومنه التواضع والصدق وخفض الجناح نعمة قد تكرّم الله بها على خلقه.

• الأول: **السجية**، أي طبيعة متأصّلة في ذات الإنسان بفعل عامل الوراثة أو التربية والأجواء التي يعيش فيها، كأن يكون الجو المنزلي أو العام جوّاً أخلاقياً طيّباً، فينمو الإنسان في ظلّه، فيتطبّع بالأخلاق الطيّبة. وهذا يكون من السهل عليه الالتزام بالأخلاق الفاضلة، بل قد يصعب عليه خلافها.

• الثاني: **النيّة**، أي الإرادة والقصد، بمعنى أن الشخص بحاجة إلى إرادة وتصميم لكي يتحلى بالصفات الحسنة، وهذا كمن ترعرع في أجواء أخلاقية غير حميدة، فتراه يعاني كثيراً لكي يلتزم بالأخلاق الفاضلة والسلوك الطيّب، والمعاناة هذه ومدى تحمّلها، إنما تقف وراءها نيّة صادقة وإرادة قاهرة لتجاوز الحالة أو الطبيعة السيئة التي

يعيشها المرء مع نفسه.

ولذلك فإن صاحب الطبيعة أو السجيّة الأخلاقية الحميدة لا يستطيع التخلّي عنها بسهولة، أي من الصعب عليه أن يستبدل بها غيرها، فلا يتكبر مثلاً لأنه مجبول على التواضع، ولا يسرق لأن الأمانة تسري في عروقه.

أما صاحب النيّة أي من يريد تجاوز أجواء تربيته السيئة فتجده يكابد ويقسو على نفسه ليصبّرها على الطاعة والخلق الحسن. فعندما يحاول أن يكون متواضعاً ذا خلق حسن ويجد في نفسه امتناعاً عن ذلك، حينئذ تراه يصبّرها جهاداً ليرقى بمستواها حتى تأخذ طابعاً جديداً ومسلكاً طيّباً عبر إرادة صلبة.

فكان والحال هذه صاحب النيّة المكافح أفضل درجة وأرفع منزلة. وهنا سؤال وهو هل بإلامكان التغيير رغم صعوبته ام لا؟

والجواب ان الذي يشكو عجزه عن إحداث التغيير في نفسه وسلوكه نحو الأحسن، بذريعة الرواسب العالقة في ذاته، فغير صائب فيما يقول، لأن عملية التغيير ممكنة وإن كانت صعبة، والأمثلة على هذا

النمط من المتذرعين بذرائع واهية كثيرة، ولكن لاحظوا هذا المثال:

من المعروف أن هناك تنافراً بين رئة الإنسان وبين الدخان الداخل فيها يفوق التنافر الذي بينه وبين أعضاء أخرى من بدن الإنسان بما فيها العين، وذلك بسبب حساسية الرئة ولطافتها ورقّتها من جهة، ولكونها العضو المهم في الإنسان بسبب تغذية الجهاز والبدن بالنفس من جهة أخرى.

ولكننا مع ذلك نلاحظ أن كثيراً من الناس يقومون بإدخال كميات كبيرة من الدخان إلى رئاتهم عبر السجائر بشوق ورغبة، بل أن بعضهم يشتاق إلى السجائر أكثر من شوقه إلى ألذّ الأطعمة! فكيف بلغوا هذه الحالة؟

لاشك أن هذه الحالة لم تحصل دفعة واحدة بل حصلت بالتدريج، ولاشك أن الرئة قاومت الأمر بردّ فعل شديد في المرّة الأولى، ولكن شيئاً فشيئاً بدأت المقاومة تخف، حتى تبدّلت إلى شوق ورغبة.

وينقل في هذا المضمار أن طبيباً قال لأحد المدمنين على التدخين: إن الدخان ينقص من عمرك إلى حدّ النصف، فإذا كان عمرك سيبلغ المئة

عام دون تناولك السجائر فإنه سيتدنى إلى الخمسين معها. فقال الرجل معانداً: إن خمسين سنة مع السيجارة أفضل عندي من مئة سنة بدونها!

وكان الرجل صادقاً في كلامه، لما يحسّ من ضعف في نفسه عن ممارسة إرادته التي دفنها بنفسه.

وعلى كلّ حال فالتدخين مثال واضح على إمكانيّة أن يبدّل الإنسان طبعه بنيّته وإرادته، وهكذا الأمر في ترك التدخين فهو الآخر بحاجة إلى نيّة صادقة وعزم شديد، بل هكذا هو الحال في التحلّي بالأخلاق الفاضلة ومنها خفض الجناح.

نسأل الله سبحانه وتعالى ببركة أهل البيت عليهم السلام أن يوفقنا لخفض الجناح والسيرة الحسنة في الدنيا وحسن العاقبة في الآخرة.

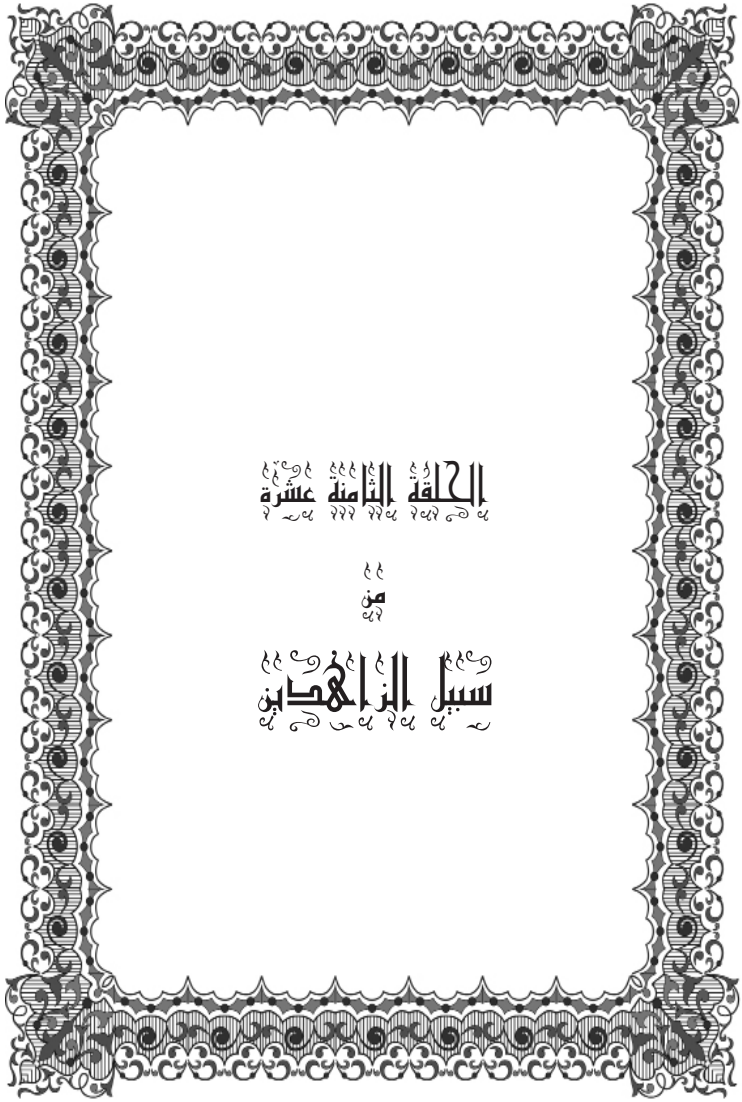

الحلقة الثامنة عشرة

من

سبيل الزاهدين

الحكمة

يروى عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه لقي في طريق عودته من الشام إلى المدينة نصرانياً ديرانياً سأله قائلاً: أأنت من علمائها أي المدينة أم من جهّالها؟!

ورغم أن الإمام الباقر عليه السلام لا يمكن أن يقاس به أحد، إلا أنه اختار جواباً هو الغاية في الحكمة، والقمة في التواضع وخفض الجناح، ممّا اهتزّ له كيان ذلك النصراني الديراني، واضطرب اضطراباً شديداً، حتى عرف من خلاله عظمة ومنزلة الإمام صلوات الله عليه!

لقد قال الإمام الباقر عليه السلام في جوابه: «**لستُ من جهّالها**».

فعدم إدعائه عليه السلام العلم في معرض جوابه، وإثباته له من خلال نفي الجهل عن نفسه، يعتبر القمّة في الخلق الرفيع والتواضع في الإجابة الذي رسم لنا من خلاله طريق الحكمة في خفض الجناح.

وهناك مثال آخر نضربه من واقعنا المعاصر يجسّد جانباً من عظمة علمائنا الأعلام وحكمتهم وتواضعهم وحسن خلقهم في مواجهة من

يسيء إليهم، متأسّين في ذلك بسادة الخلق أهل البيت عليهم السلام الذين كانوا يضعون في أولوياتهم وقبل كل شيء ضرورة إقتناص الفرص لهداية الناس من خلال إحداث الإنقلاب الروحي في ذواتهم.

فكان من بين هؤلاء العلماء الأفذاذ السيد محسن الحكيم رحمه الله، إذ نقل أنه لما أتمّ تأليف موسوعة «مستمسك العروة الوثقى» بعد جهد جهيد، جاءه أحد المدرسين المغمورين في الحوزة العلمية في النجف الأشرف ولم يكن رأيه حينذاك بالسيد الحكيم إيجابياً فقال له: سيدنا! إن الشيخ الأنصاري رحمه الله قد رفع المستوى العلمي في النجف الأشرف بكتبه القيّمة، وأنت قد أخفضته بكتابك«المستمسك» هذا!

وكان بإمكان السيد الحكيم رحمه الله أن يطرد هذا الرجل وينهره ويهينه من خلال استفادته من مكانته المرجعية أو مواجهته مواجهة علمية يبطل فيها كذبه في ادعائه الخطير. إلا أنه لم يختر لا هذا ولا تلك، بل قال له بكل أدب وتواضع وخفض جناح: وكيف تقارنني بالشيخ الأنصاري؟ أين أنا من الشيخ؟ حبّذا لو تدوّن ملاحظاتك على الكتاب، لأكون شاكراً لك.

فلم يسع الرجل حينها سوى الإعتذار إلى السيد الحكيم بعد سماعه لردّه هذا، والإقرار بعظمته والاعتذار له بما بدر منه من تحامله عليه، بالإضافة إلى أن موقف السيد الحكيم هذا وما تحلّى به من التواضع وخفض الجناح أحدث فيه تغيّراً كليّاً تجاهه.

بنود خفض الجناح:ـ

ينحصر التواضع في كلمات معدودة أو سطور مسبوكة بل هو حياة عملية يعيشها المرء في أكثر أوقاته، وقد أشار الإمام جعفر الصادق عليه السلام إلى أربعة بنود فيه في قوله عليه السلام:

١. «**من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس**» فلا تتوقع أن تكون لك الصدارة دائماً في كل مجلس، بل ينبغي لك أن تجلس حيث ينتهي بك المجلس وإن كان مستواك العلمي أو السياسي أو الاقتصادي أو غير ذلك أعلى مرتبة من غيرك، ولا تتعقب أسباب ذلك، بل تسلّم به تواضعاً، فلا تعتبر نفسك أرفع مكاناً من الآخرين، إذ الناس مهما تفاوتت مستوياتهم المادية، تبقى لهم كراماتهم ومشاعرهم الإنسانية، فلا موجب للمساس بها عبر التكبّر والأنفة وتصعير الخدّ.

ينقل عن أحدهم أنه تعوّد سنيناً طويلة على الوقوف في الصف

الأول لأداء صلاته خلف إمام الجماعة، وكأنّ ذلك المشهد صار جزءاً لا يتجزّأ من صلاته، وذات يوم جاء كعادته لأداء صلاة الجماعة فرأى المسجد مكتظّاً بالمصلّين ولا مجال له للوقوف في الصف الأول ولا الثاني والثالث و... سوى الصف الأخير، فاستاء أيّما استياء! واضطر بعد ذلك للصلاة في الصف الأخير.

ولكن وهو في أثناء صلاته كأنّ نوراً قد أضاء في قلبه وكان هذا بمثابة فرصة ذهبيّة لهدايته من قبل الله تعالى حين تنبّه لنفسه وللغرور الذي أصابه بإصراره ورغبته في أداء الصلاة في الصف الأول، فرأى نفسه بعد ذلك مجبراً على إعادة كلّ صلاة قد صلاها في الصفّ الأول،احتياطاً خوف أن تكون باطلة لما شابها من الرياء والتكبر.

٢. «**وأن تسلّم على من تلقى**» أي لا فرق بين من تعرفه ومن لا تعرفه والكبير والصغير والعالم والجاهل والغني والفقير، لما لذلك من إبراز أجمل أشكال التواضع وأشدها أثراً، لأن إبداء السلام تتمحور عليه عملية كبح جماح الذات وتأديبها لمحاولة إيقافها دون انطلاقها نحو الكبر وتصور الأفضلية.

٣. «**وأن تترك المراء وإن كنت محقّاً**» أي ضرورة ترك الجدال غير المثمر والذي لا يتوقع عبره التوصل إلى النتيجة المطلوبة، حتى وإن كنتَ محقّاً وكان الصواب واضحاً من جانبك، هذا فضلاً عن أن يكون الإنسان على علم بعدم صواب رأيه. ولعل هذا السبب يعدّ مع بقية الأسباب لأن يكون هذا النوع من الجدال نقيضاً للتقدّم العلمي، بينما الحوار المبتني على أسس صحيحة يمكن أن يطور الإنسان وينمي فيه القدرة العلمية.

ولقد روي في هذا الإطار أن الشيخ البهائي﵀ وكان المرجع الديني الأعلى في إيران كان قد زار النجف الأشرف والتقى هناك المقدس الأردبيلي﵀ الذي كان معروفاً بأعلميته وكراماته ومدى إقتدائه بأهل البيت ﷺ فدار أثناء لقائهما حوار علمي بينهما، شوهد خلاله المقدس الأردبيلي يتقطع في الجواب!! مما ترك انطباعاً لدى الحاضرين بأعلمية الشيخ البهائي بما قدّمه من أدلة وآراء. وفي اليوم التالي عندما ذهب الرجلان إلى مقبرة وادي السلام لقراءة سورة الفاتحة على أرواح المؤمنين وزيارتهم، كشف المقدس الأردبيلي ضعف أدلّة الشيخ البهائي التي قدّمها يوم أمس بالنقض والتحليل، حتى اقتنع الشيخ البهائي بصحّة آراء المقدس الأردبيلي، وعندما سأله الشيخ البهائي فيما إذا كان

قد عكف ليلة أمس في البحث عن الأدلة الأكثر عمقاً؟ أجابه المقدس الأردبيلي مؤكداً له بأنه كان على اطلاع بها ولكن منزلته كضيف فضلاً عن شهرته العلمية ومكانته الدينية منعته من كشف ضعف أدلّته أو خطأ رأيه على مرأى من الناس، ولما اجتمعا بمفردهما في المقبرة أصبح من المناسب للمقدس الأردبيلي إثبات رأيه العلمي بتجرد.

وهذه الأخلاق الحميدة وخفض الجناح الذي ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنسانيّ هو الذي خلّد اسم المقدس الأردبيلي والشيخ البهائي وأمثالهما من علمائنا الأعلام رغم مرور مئات السنين على وفاتهم.

ومن بنود خفض الجناح:ـ

٤. «**وأن لا تحب أن تحمد على التقوى**».

ولعل هذه الخصلة هي الأصعب من بين الخصال، إذ الحب وعدمه لهما مقدمات كثيرة، فإن الحب تفكير وعاطفة، وهذا ما لا يمكن السيطرة عليه بسهولة قياساً بإمكانية السيطرة على الجوارح والحواسّ. فعندما تكون مثلاً عالماً فقيهاً أو خطيباً بارعاً ولا تحب أن تمدح على هذه المميزات، فذلك من الصعوبة بمكان، لاسيما وأنت تعرف أن الناس قد دأبوا على توجيه المديح لمثل هذه الأمور، لذا ينبغي لك أن تعرف أو

تروّض نفسك لأن تعرف ضرورة عدم حب هذا المديح، فلا تستاء إذا لم يؤدّ الناس لك ما دأبوا عليه من مديح لغيرك.

فبمثل هذا التواضع وخفض الجناح يمكن أن يكون المرء خالداً مدى الدهر، فبلاشك أنه كان في زمن المقدس الأردبيلي الكثير من الأثرياء، ولكن التأريخ لم يأت لهم على ذكرٍ، بسبب كونهم قد اعتمدوا في حياتهم على ثرواتهم فقط، فذهبوا كما ذهبت ثرواتهم كهشيم تذروه الرياح، وبقي تراث المتقين المتواضعين مدرسة معطاء لمن يريد أن ينهل من معينها.

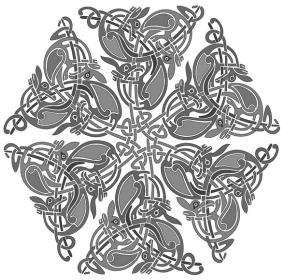

الحلقة التاسعة عشرة

من

سبيل الزاهدين

وحسنِ السيرة وسُكونِ الرّيح

تقدّم الكلام في الحلقة السابقة أن الإمام السجاد عليه السلام وهو الإمام المعصوم الذي يُفترض بنا الاقتداء به يطلب من ربه الكريم أن يحلّيه بحلية الصالحين ويلبسه زينة المتقين، عبر خصال توقّفنا عند بعضها في الحلقة السابقة من هذه الفقرة من الدعاء الذي يترجم ترجمة صادقة ما أمر الله سبحانه وتعالى به عباده في الصلاح و التقوى.

ومن جملة ما يطلب الإمام السجاد عليه السلام من الله تبارك اسمه من الأخلاق الفاضلة التي تعدّ من حلية الصالحين وزينة المتّقين: حسن السيرة وسكون الريح.

يقول عليه السلام في دعائه: «**وحسنِ السيرة وسُكونِ الرّيح**».

وحسن السيرة إنما يتحقق بحسن السريرة، فإذا كان باطن المرء طيباً طاهراً كان ظاهره كذلك أيضاً. أي أن السريرة الطيبة تعكس على شخصية الفرد وتصرفاته مصاديق طيبة، والعكس بالعكس، حتى أن الإنسان ليلمسها في نفسه ويراها رأي العين.

فمن كانت سريرته طيبة، لا تصدر عنه تصرّفات تنمّ عن الكبر والغضب والعنف، سواء كان ذلك من خلال العين أو اللسان أو سائر جوارحه، حين تعامله مع أسرته، أو ما يحيط به من أفراد المجتمع على مختلف أطيافهم وأصنافهم.

وبما أنّ قضية حسن السيرة مهمة ومصيرية في حياة الفرد، لذا فمن الجدير بالإنسان المؤمن أن يدعو الله تعالى لينعم عليه بهذه الصفة الخيّرة، ويكون دعاؤه دعاء المضطر، فيدعو من كلّ قلبه وبكلّ صدق وثقة ليحصل على ما يريد.

سكون الريح:ـ

أما عبارة «سكون الريح» فقد تعددت تفاسيرها العلمية والأدبية، ولكن الأرجح هو أن كلمة «سكون» تعني الثبوت أو الثبات. أما استعارة كلمة «الريح» فهي لغرض التعبير عن شخصية الإنسان ، فيكون معنى سكون الريح ثبات الشخصية وعدم تزعزعها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[1] أي تتبخر قوة شخصيتكم ويتفتت كيانكم وتباح حرمتكم، بفعل التنازع

(١) الأنفال/ ٤٦

والإختلاف القائمَين على قواعد غير أخلاقية.

وعليه، فحريّ بالإنسان أن يعرف بأن حسن السيرة وسكون الريح من صفات الصالحين وحلية المتقين، أي أن التصرف اللائق وقوة الشخصية، والاتزان في المواقف والسلوك تأخذ بالإنسان نحو التقوى والصلاح. فإنك لن تجد صالحاً تقياً يميل مع الرياح أينما تميل، أو يعتنق اليوم مذهباً وغداً يؤمن بآخر، أو يدافع عن جهة أو شخص ما دون أن يزن موقفه وفق موازين التقوى والصلاح المذكورة في كتاب الله وسيرة النبي وآل بيته عليهم الصلاة والسلام.

بينما الضعيف الإيمان يتحرك وفق هواه وما تركن إليه نفسه، لذلك تراه وبدافع حب المال مثلاً، يضطرّ إلى مدح هذا أو ذاك للحصول على قدرٍ من المال، بمعنى أنه لا يرى شخصه ولا يهتمّ لكرامته بقدر اهتمامه بمن حوله وشدّة حرصه على تحصيل المكاسب الآنية الزائلة، فهو لا يهتمّ فيما إذا كان هذا الموقف حقاً أم باطلاً، لأنه لا يجد متسعاً – تحت وطأة ميوله وهوى نفسه – لإحترام هذه القاعدة الشرعية والإنسانية التي تحثّه على صيانة حرمة نفسه، لأن نفسه قد استولت على شخصيته وكرامته حتى أعمته عن الرؤية الثاقبة للحياة تلك الرؤية التي يجب

عليه أن يرى من خلالها الواقع بمنظار الصلاح والتقوى.. حتى أصبح كائناً مجرداً عن قوة الشخصية، تلك التي تختزل بين طياتها الوعي والبصيرة والإدراك.

مثال على الذين يميلون مع الريح:ـ

ولعل البعض قد وصل إلى سمعه إسم «شبث بن ربعي»، هذا الشخص الذي ينبغي للتأريخ أن يتوقف عنده، باعتباره النموذج الأبرز للشخصية المتزلزلة، حيث ينقل عنه أنه قد بدّل معتقده قرابة خمس أو ست مرات أو أكثر من ذلك!! فهو الذي كان يقاتل في ركاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان يوصف بالذكاء الإنتفاعي، أو ما يطلق عليه في الوقت الحاضر بالواقعية، أي يتصرف وفق ما يمليه عليه الواقع بغض النظر عن مدى حسنه أو بشاعته، حتى بلغ من أمره أن أمير المؤمنين عليه السلام اختاره من بين عشرات الآلاف من جنوده بمعية بشر بن عمرو وسعيد بن قيس للتفاوض والمحاججة مع معاوية علّه يؤوب إلى الطاعة والجماعة وإلى إتباع أمر الله سبحانه قبيل واقعة صفين. كما أنه كان من الذين كتبوا للإمام الحسين عليه السلام الكتب التي تحثه ليقدم إلى الكوفة، بعد أن أعلن ورفاقه نقض بيعة يزيد بن معاوية. ولكنه حيث كان ميّالاً مع كلّ ريح، فقد انتهى به الأمر للإشتراك بمباشرة ذبح سيد

الشهداء عليه السلام فضلاً عن قتاله والتأليب عليه، فكان مثال العالم الفاسد المتذبذب، الذي كان قد مدح أمير المؤمنين عليه السلام يوماً، وذمّه يوماً، وكاتب الإمام الحسين عليه السلام يوماً، وقتله وهو يعلم أنه ابن رسول الله ووصيّه يوماً. وفي مرسلة صفوان عن أبي عبد الله قال: «**إنّ أمير المؤمنين عليه السلام نهى بالكوفة عن الصلاة في خمسة مساجد... ومسجد شبث بن ربعي...**».

وعن سالم عن أبي جعفر عليه السلام قال:«جدّدت أربعة مساجد بالكوفة فرحاً لقتل الحسين... ومسجد شبث بن ربعي»

نموذج آخر

وقبله كان أبو هريرة نموذجاً لعدم الثبات في المعتقد والشخصية، فهذا الرجل الذي يوصف بأنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، ويرد اسمه كثيراً في كتب العامة وإذاعاتهم وكأنه حامل لواء الإسلام والمدافع عن حياضه، ينقل عنه التاريخ، أنه قال: الصلاة خلف عليّ أتم، وسماط معاوية أدسم، والوقوف على التل أسلم... أي أنه كان يصلي خلف علي ويأكل عند معاوية، وإذا نشبت الحرب تنحّى ووقف متفرّجاً عن بعد!!

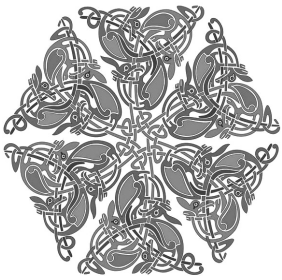

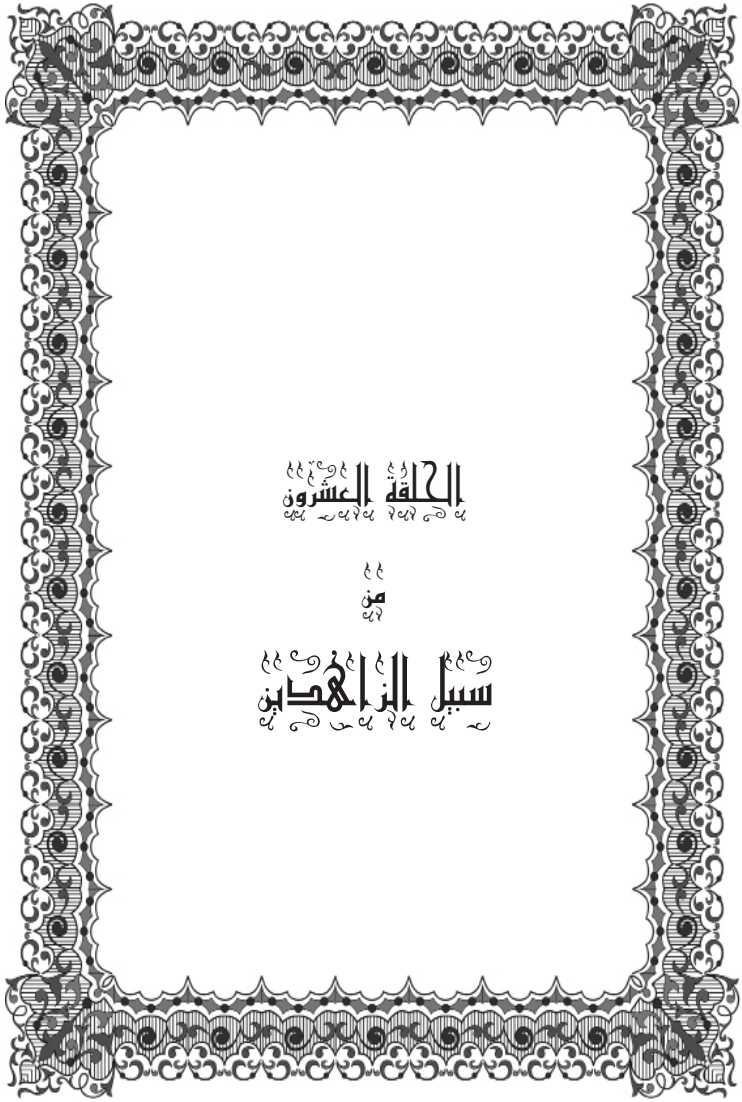

الحلقة العشرون

من

سبيل الزاهدين

المنافقين

روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «**إن من يكذب، يكذب مرتين، لأن الكذب ليس مجرد مخالفة المعتقد، وإنما هو مخالفة الواقع أيضاً**».

قال سبحانه وتعالى بشأن المنافقين: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾[1] فقولهم «إنك لرسول الله» كذب محض من وجهة نظرهم لكونهم كافرين بالله قبل كفرهم بالرسالة، فلسانهم ينطق بما لا يعتقدون، كذلك كان شبث بن ربعي، الذي كان يكذب حتى في قتاله إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام، لأن قتاله كان نابعاً عن قلب متزلزل مضطرب، فكان شأنه ومن مثله في ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ**﴾[2]. لذا يجدر بالإنسان أن يهتمّ كل الإهتمام بحسن سريرته كما يهتمّ بحسن سيرته لأنه مهما حاول التظاهر بالصلاح فإنه لا محالة سينكشف إن كانت سريرته طالحة، وإذ ذاك يكون الغبن

(١) المنافقون/ ١

(٢) النساء/ ١٤٣

عليه أفدح وأفظع.

ولنا ان نستشهد بقصة معبرة من واقع التأريخ:

روي أنه: **كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُول اللهَّ ﷺ مُؤْمنٌ فَقيرٌ شَديدُ الْحَاجَة منْ أهل الصُّفَّة وكَان مُلازماً لرَسُول اللهَّ ﷺ عنْدَ مَوَاقيت الصَّلاة كُلِّها لا يَفْقدُهُ في شَيْء منْها وكَان رَسُولُ اللهَّ ﷺ يَرقُّ لَهُ ويَنْظُرُ إلى حَاجَته وغُرْبَته فَيَقُولُ: يَا سَعْدُ لَوْ قَدْ جَاءَني شَيْءٌ لأَغْنَيْتُكَ. فَأَبْطَأَ ذَلِكَ عَلَى رَسُول الله ﷺ فَاشْتَدَّ غَمُّ رَسُولِ اللهَّ ﷺ لسَعْد، فَعَلمَ اللهُّ سُبْحَانَهُ مَا دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهَّ منْ غَمِّه لسَعْد، فَأَهْبَطَ عَلَيْه جَبْرَئيلَ عليه السلام ومَعَهُ درْهَمَان، فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ إنَّ اللهَّ قَدْ عَلمَ مَا قَدْ دَخَلَكَ منَ الْغَمِّ لِسَعْد، أَفَتُحبُّ أَنْ تُغْنيَهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ: فَهَاكَ هَذَيْن الدِّرْهَمَيْن فَأَعْطهمَا إيَّاهُ ومُرْهُ أَنْ يَتَّجرَ بهمَا.**

فَأَخَذَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ ثُمَّ خَرَجَ إلى صَلاةِ الظُّهْر وسَعْدٌ قَائمٌ عَلَى بَاب حُجُرَات رَسُول اللهَّ ﷺ يَنْتَظرُهُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهَّ ﷺ قَالَ: يَا سَعْدُ أَتُحْسِنُ التِّجَارَةَ؟ فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: واللهَّ مَا أَصْبَحْتُ أَمْلكُ مَالاً أَتَّجرُ به. فَأَعْطَاهُ النَّبيُّ ﷺ الدِّرْهَمَيْنِ وقَالَ لَهُ: اتَّجرْ بهمَا وتَصَرَّفْ لرزْقِ اللهَّ.

فَأَخَذَهُمَا سَعْدٌ وَ مَضَى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى صَلَّى مَعَهُ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: قُمْ فَاطْلُبِ الرِّزْقَ فَقَدْ كُنْتُ بِحَالكَ مُغْتَمّاً يَا سَعْدُ.

فَأَقْبَلَ سَعْدٌ لاَ يَشْتَرِي بِدِرْهَمٍ شَيْئاً إلاَّ بَاعَهُ بِدِرْهَمَيْنِ وَلا يَشْتَرِي شَيْئاً بدرْهَمَيْن إلاّ بَاعَهُ بِأَرْبَعَة دَرَاهِمَ. فَأَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى سَعْد، فَكَثُرَ مَتَاعُهُ وَمَالُهُ وَعَظُمَتْ تجَارَتُهُ، فَاتَّخَذَ عَلَى بَاب الْمَسْجِدِ مَوْضعاً وَجَلَسَ فيه فَجَمَعَ تِجَارَتَهُ إلَيْه، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إذَا أَقَامَ بلالٌ للصَّلاة يَخْرُجُ وسَعْدٌ مَشْغُولٌ بالدُّنْيَا لَمْ يَتطَهَّرْ وَلَمْ يَتَهَيَّأْ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ قَبْلَ أَنْ يَتَشَاغَلَ بِالدُّنْيَا، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: يَا سَعْدُ شَغَلَتْكَ الدُّنْيَا عَنِ الصَّلاةِ؟ فَكَانَ يَقُولُ: مَا أَصْنَعُ؟ أُضَيِّعُ مَالِي؟ هَذَا رَجُلٌ قَدْ بِعْتُهُ فَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَوْفِيَ منْهُ، وَهَذَا رَجُلٌ قَد اشْتَرَيْتُ منْهُ فَأُرِيدُ أَنْ أُوفِيَهُ.

فَدَخَلَ رَسُولَ اللهَّ ﷺ منْ أَمْر سَعْد غَمٌّ أَشَدُّ منْ غَمِّه بفَقْره.

فَهَبَطَ عَلَيْه جَبْرَئِيلُ عليه السلام فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إنَّ اللهَّ قَدْ عَلِمَ غَمَّكَ بسَعْدٍ، فَأَيُّمَا أَحَبُّ إلَيْكَ حَالُهُ الأولى أَوْ حَالُهُ هَذِهِ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: يَا جَبْرَئِلُ بَلْ حَالُهُ الأولى. قَدْ أَذْهَبَتْ دُنْيَاهُ بآخرَته.

فَقَالَ لَهُ جَبْرَئيلُ عليه السلام: إنَّ حُبَّ الدُّنْيَا وَالأمْوَال فتْنَةٌ وَمَشْغَلَةٌ عَن

الآخِرَةِ، قُلْ لسَعْدٍ: يَرُدُّ عَلَيْكَ الدِّرْهَمَيْنِ اللَّذَيْنِ دَفَعْتَهُمَا إِلَيْه، فَإِنَّ أَمْرَهُ سَيَصيرُ إلى الحَالَة الَّتي كَانَ عَلَيْهَا أولاً.

فَخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ فَمَرَّ بسَعْد، فَقَالَ لَهُ: يَا سَعْدُ أَ مَا تُريدُ أَنْ تَرُدَّ عَلَيَّ الدِّرْهَمَيْن اللَّذَيْن أَعْطَيْتُكَهُمَا؟

فَقَالَ سَعْدٌ: بَلَى وَمِائَتَيْنِ.

فَقَالَ لَهُ ﷺ: لَسْتُ أُريدُ مِنْكَ يَا سَعْدُ إِلاَّ الدِّرْهَمَيْن.

فَأَعْطَاهُ سَعْدٌ درْهَمَيْن، فَأَدْبَرَتِ الدُّنْيَا عَلَى سَعْدٍ حَتَّى ذَهَبَ مَا كَانَ جَمَعَ وَ عَادَ إلى حَاله الَّتي كَانَ عَلَيْها.

ولدينا سؤال يطرح نفسه ماهي عوامل إنكشاف السريرة ؟

ويكمن الجواب عن هذا السؤال: بإن انكشاف السريرة يكون عبر عوامل وحالات عديدة، كالمال والشهرة والعلم والذرية والمنصب والغضب والأمانة. وعليه فإن تأكُّد المرء من طوِيّة سريرته ومدى معرفته لمستوى حسنها أو قبحها يُمكّنهُ من انتخاب السلوك الأمثل لسيرته بين الناس لتحاشي أي خسارة أو فضيحة من جهة، وضمان أكبر

قدر ممكن من الثقة والإعتداد بنفسه من جهة أخرى.

فحريّ بالإنسان المؤمن أن يجاهد نفسه حق الجهاد لتحسين سريرته وصقلها وفق الالتزام بالأوامر والنواهي الشرعية، لكي يعلم حقيقتها وما ترمي إليه، فيتفادى السقوط، ويضمن النجاح.

وخير شاهد نستشهد به عن حسن السريرة المقدس الأردبيلي:

فلقد وعى المقدس الأردبيلي مرجع الشيعة في زمانه هذه الحقيقة الرائعة فطبّقها مبتدئاً بنفسه، حتى أنه نقل عن حسن سريرته وسيرته ما يقف له الإنسان حائراً متعجباً، إذ قيل إنه كان ذات يوم يمشي في صحن مرقد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فسأله أحد الزائرين دون علمه بمن يكون عما إذا كان يعرف محلاً خاصاً بغسل الملابس، فقال له المقدس الأردبيلي: أنا أغسلها لك بنفسي! ضارباً بذلك كل ما يمكن أن يكون عذراً قد يحول ما بين الإنسان وبين أداء الخدمة للمؤمنين والزائرين، الأمر الذي يكشف عن حقيقة السريرة الطاهرة لهذا الرجل النادر المثال، فقام بغسل ملابس الرجل الزائر، وعاد إليه بها في الوقت المحدد لتسليمها، فشاهده بعض من يعرفه، فقال للزائر: هل تعرف من غسل ملابسك؟ إنه المرجع الأعلى! فأخذ الرجل يبدي كل الإعتذار،

فردّه المقدس الأردبيلي قائلاً: إنما أنت صاحب الفضل عليّ، لأنك من زوار أمير المؤمنين عليه السلام..

يُنقل أنّ الإمام عليه السلام، كان قد كافأه بأن كان يرحّب به في أيّ وقت أراد الزيارة حيث كانت الأبواب تفتح له دون مفتاح. وما أعظم ذلك من قدسية وفضل!

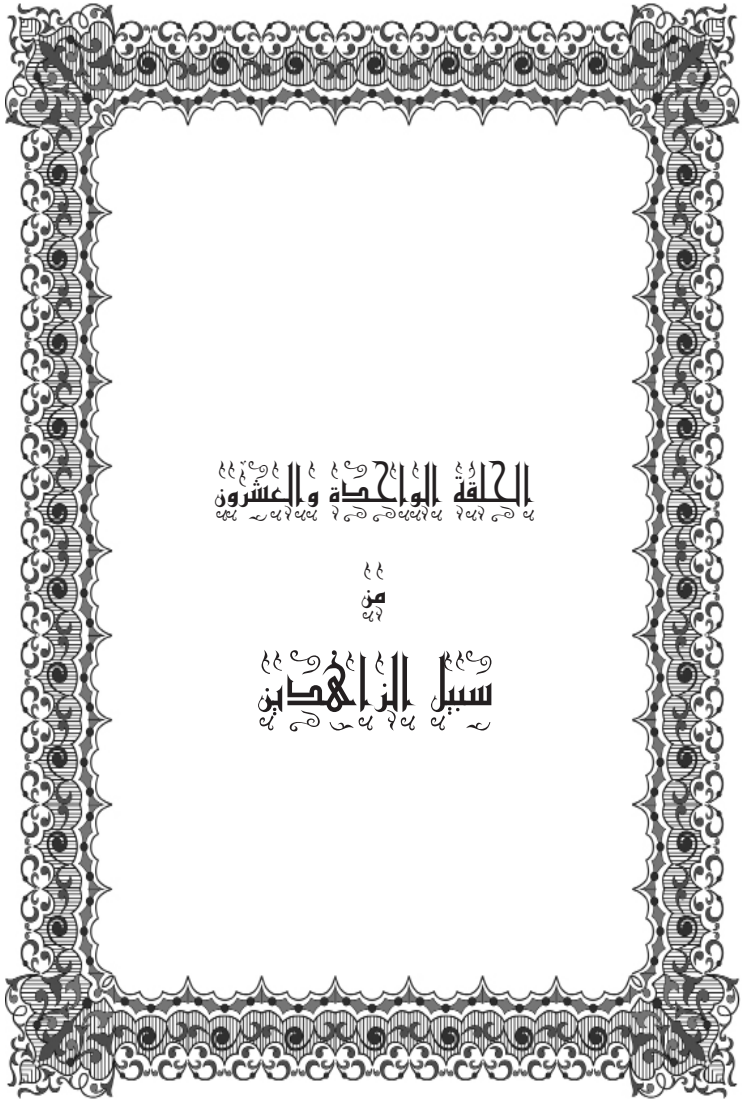

الحلقة الواحدة والعشرون

من

سبيل الزاهدين

طيب المخالقة

يقول الإمام زين العابدين في فقرة أخرى من فقرات دعاء مكارم الأخلاق :

«**اللهمَّ صلِّ على محمد وآله، وحلّني بحلية الصالحين... وطيب المخالقة، والسبق إلى الفضيلة**».

ان مما لاشك فيه أن الإنسان المؤمن يطمح لأن يكون من عباد الله الصالحين والمتّقين، ولكن لا بد لذلك من مقدّمات، ومراحل كفيلة بأن تؤدّي إليه. هذه المقدّمات أشار إليها الإمام السجّاد﵇ في هذا المقطع من الدعاء، ومن جملته قوله «**وطيب المخالقة والسبق إلى الفضيلة**»، فقد عدّهما﵇ مقدّمتين هامّتين من مقدّمات تحقّق التقوى والصلاح في الإنسان .

إننا اذا تتبعنا قصائد شعراء العرب أو كلمات فصحائهم لم نجد أنهم قد أضافوا عبارة «الطيب» إلى «المخالقة» كما فعل الإمام﵇ في هذه الجملة. ومن ثم فإنّ هذا التفرّد في التعبير يعكس روحاً أدبية وعلمية ونفسية رفيعة للغاية. ولو تدبّر أدباء العرب في هذه الكلمة الرائعة

لغاصوا في بحورها فأخرجوا بديع معانيها وجمال الذوق فيها. ولعلّ كلّ من له أدنى إلمامة بالأدب يكتشف بعض كنوز ما قاله الإمام عليه السلام في هذه الكلمة.

إن مفردة «طيب» هي نعت يشير في أصله إلى معنى حقيقي ذاتيّ غالباً، فيقال عادة: أطاب، إذا تكلّم بكلام طيب، لأن الطيب أمر حقيقي ذاتي وليس أمراً ظاهرياً، وإلا لكان المقتضي أن يقول الإمام عليه السلام: «**حسن المعاشرة**» لما بينهما من تناسب وانسجام، أما قوله عليه السلام : «**طيب المخالقة**» فبحاجة إلى تأمّل.

ولتصوير المعنى المراد بشكل أوضح نمثّل لذلك فنقول:

يطلق عادة على الأكل اللذيذ بأنه طعام طيّب، نظراً لوجود المقبّلات ذات النكهة الطيّبة فيه مع الطهي الجيّد، كما يطلق على المسك والعنبر مثلاً أنهما من الطيب.

إن موارد الإستعمال لهذه الكلمة، سواء في القرآن الكريم الذي هو القمّة في البلاغة العربية جمالاً ودقّة أو في كلمات نهج البلاغة وسائر مرويّات أهل البيت عليهم الصلاة والسلام أو في قصائد فطاحل

الشعراء مثل البحتري وأبي تمام والمتنبّي ومن سبقهم كامرئ القيس وغيرهم، غالباً ما كانت تأتي بكلمة «طيب» لتستعملها في أحد موردين:

الأول: في الأمر الذاتي كما في المسك وسائر الأنواع الطبيعية حيث تسمى طيباً.

الثاني: في الأمر الواقعي كما في الأطعمة الطيبة بسبب ممازجتها بما يجعلها كذلك.

أما استعماله لإرادة معنى جديد عبر الجمع بين كلمة الطيب وإضافتها إلى مفردة أخرى للخروج بمعنى ثالث يوحي بذاتية الأمر، فلعلّه مما تفرّد به الإمام السجاد عليه السلام في هذا الدعاء، إذ جمع عليه السلام بين هاتين الكلمتين، فلم يقل: حسن المخالقة، لأن ذلك كان سيدلّل على رغبته عليه السلام في أن يكرمه الله تعالى بحالة خارجية، قد يكون باطنها غير ظاهرها ولكنه بقوله: «**طيب المخالقة**» يكون قد طلب من ربه تبارك اسمه حاجة داخلية يتكافأ فيها الباطن مع الظاهر.

ولعلّ من النكات الخاصّة بهذا الإستخدام، أنه صلوات الله عليه أراد أن يضمّن مفردته أو يشربها معنىً آخر، حيث يأتي بتعبير واسع ثم

يربطه بكلمة ما، ليستخرج من هذا الربط معنى جديداً.

أما المخالقة فتعني لغةً: التعامل الخلقي أي المعاشرة، فالمعاشرة أمر ظاهري يعكس تعاملاً خلقياً مع الآخرين، فمن المخالقة مثلاً إجابة الدعوة إلى الطعام وغيره من الأمور الحسنة والتكلّم مع الناس والإصغاء إليهم، والتعامل معهم عموماً، فهي إذن أمرٌ أكثر ما يرتبط بالحواس الخمس، العين والأنف واللسان والأذن والبشرة، ولذلك قيل في المخالقة: المخالطة والاستيناس.

فتارة ينظر المرء إلى أخيه بعين المحبّة وأخرى بعين الغضب، وقد يصغي إليه وقد يسمعه فقط، وقد يصافحه بحرارة، وقد يقدّم يده إليه ببرود ليجامله وهكذا.

فهذه جملة من مصاديق المخالقة ذات العلاقة بالجانب المرئيّ من الإنسان والذي يطلق عليه اسم المخالطة أو المعاشرة، ولعلّ ما نسبته تسع وتسعون بالمئة من مصاديق المعاشرة على اعتبار أن المعاشرة أعمّ من المخالقة مرتبط بهذا الجانب.

فإذا قرنت المخالقة مع الطيب حصلت صورة جديدة تؤدّي إلى

تصوّر الصدق في العلاقة بين الإنسان ومن حوله، وكأنّ هذه العلاقة طيّبة ذاتاً ومنذ البداية وأنها من الصميم. فالابتسامة الصادرة عبر طيب المخالقة توحي بأنها قد خرجت من القلب، ولا يراد بها المجاملة، وتعرف الكلمة الجارية على اللسان بأنها كلمة صدق وليست مراوغة يراد بها المكيدة والخداع.

فطيب المخالقة إذن تعني إحراز الصدق وإبرازه في التعامل مع الناس.

فلنسع إلى غرس طيب المخالقة في نفوسنا، وهذا يعني صفاء ذواتنا ونقاء سرائرنا وسلامة قلوبنا من الكدورة. وليس ثمة شيء يمكن أن يحققه الإنسان أكثر من هذا الأمر.

كما يشهد المخالف قبل المؤالف أن أهل البيت عليهم السلام كانوا يتمتعون بطيب المخالقة على أعلى ما يمكن تصوّره من المستويات بل إن ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله «**نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد**» قد أشار إلى عدم إمكانية تصوّر مستوياتهم، بما في ذلك مستوياتهم الخلقية، ولذلك فإنهم كانوا صادقين في علاقاتهم مع الناس، فسموا عن كلّ ما

من شأنه أن يغضب الله عز وجل، في كل المواقف وتحت وطأة مختلف الظروف، سواء كانوا حاكمين أو محكومين، كباراً أو صغاراً ظاهرين أو مستترين.

فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو نفسه في عهد مولاه النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وهو نفسه بعد وفاته صلى الله عليه وآله، وكذلك في أيام حكمه عليه السلام ، لم يتغيّر في خلقه شيء.

فقد روى العامة والخاصة بل غير المسلمين أيضاً، قصّة شراء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قميصين أعطى أفضلهما خادمه قنبراً، مع أنه عليه السلام كان يرأس أكبر حكومة على وجه الأرض ويرتقي المنبر ويلتقي كبار الرجال من مختلف الديانات والمذاهب والأقوام، ولم يتصرّف عليه السلام ذلك التصرّف إلا لأن خُلُقه من نفس خُلُق الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، فقالها عليه السلام مدويّة: «**إن الله عز وجل قد فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ** «أي يهيج» **بالفقير فقره**»

الحلقة الثانية والعشرون

من

سبيل الزاهدين

سيرة آل البيت عليهم السلام

إن المتتبع لسيرة آل البيت عليهم السلام يجدها كانت ذات صبغة واحدة، سواء كان الإمام منهم حاكماً قائماً بالأمر أو مقصىً عنه، فقد روى يونس بن ظبيان عن سيرة الإمام الصادق عليه السلام قال:

«كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالحيرة أيام مقدمه على أبي جعفر في ليلة صحيانة مقمرة، قال: فنظر إلى السماء فقال: «يا يونس، أما ترى هذه الكواكب ما أحسنها! أما إنها أمان لأهل السماء ونحن أمان لأهل الأرض».

ثم قال: «يا يونس، فمر بإسراج البغل والحمار».

فلما أسرجا قال: «يا يونس أيهما أحبّ إليك البغل أو الحمار؟».

قال: فظننت أن البغل أحبّ إليه لقوّته، فقلت: الحمار.

فقال: «أحبّ أن تؤتوني به».

قلت: قد فعلت. فركب وركبت.

ولما خرجنا من الحيرة قال: «تقدم يا يونس».

قال: فأقبل يقول: «تيامن.. تياسر ».

فلما انتهينا إلى الذكوات الحمر قال: « هو المكان؟ ».

قلت: نعم.

فتيامن ثم قصد إلى موضع فيه ماء وعين، فتوضّأ، ثم دنا من أكمة فصلّى عندها ثم مال عليها وبكى، ثم مال إلى أكمة دونها ففعل مثل ذلك، ثم قال: «يا يونس افعل مثل ما فعلت».

ففعلت ذلك، فلما تفرّغت قال لي: «يا يونس تعرف هذا المكان؟».

فقلت: لا.

فقال: «الموضع الذي صلّيت عنده أولاً هو قبر أمير المؤمنين عليه السلام ، والأكمة الأخرى رأس الحسين بن علي بن أبي طالب»»

وهناك قضية يجب الإنتباه لها، وهي أن المخالقة إن لم تكن نابعة من داخل الإنسان ، فإنه سيبتلي بالتعرّض للضغوط النفسية الشديدة، جرّاء تصنّعه ونفاقه وتذبذبه، الأمر الذي يؤدي إلى عجزه في المحافظة على سلامته وصحّته، بينما إذا كان الفرد مؤمناً صادقاً بمخالقته أي كان طيّب المخالقة فإنه سوف ينطلق إلى آفاق الحياة بكل أمن وسلامة.

إن من مميزات طيب المخالقة أنها تساعد الإنسان على مقاومة المشاكل، والصمود بوجه المشاكسين والمغالطين والمعاندين ومحاولة

الوصول إلى برّ الأمان رغم كل الظروف.

وسنروي حكاية عن شخصين لكلّ منهما قصّة، إذ ابتلي كلّ منهما بمشكلة مالية، فكان الأول مختلفاً مع شخص على نسبة حصّته من أرض يتنازعان فيها، فكان يدّعى أن نسبته ٨٠٪ في حين كان لا يقرّ له خصمه بأكثر من ٤٠٪ وكان لكلّ منهما أدلّته وشواهده، فكان الأول يتظاهر بحسن المخالقة ويقول: رغم ثقتي بكسبي للدعوى فيما لو ترافعنا للمحكمة إلا أني لا أقوم بذلك لأن الترافع ليس من شأني، كما أني لا أريد تعريض غريمي للهزيمة القضائية. ولكن هذا الشخص نفسه أصيب على أثر هذا الخلاف بانهيار أعصابه وهو ما أدّى إلى إصابته بالسكتة القلبية ومات على أثرها، وما ذلك إلاّ لأنه كان يتصنّع ويتظاهر بحسن السلوك وعدم الإكتراث، ولم تكن مخالقته نابعة من الداخل حتى أجهد نفسه وأتلف أعصابه.

أما الشخص الثاني الذي له قصّة مشابهة، فكان مثالاً حقيقياً لمن لا يكترث بالنواحي المادية، وكان طيّب المخالقة مع الناس، وذلك لأنه عندما أُخبر بأن بيته قد صودر، لم يكترث، وقال: إن الأمر ليس من شأنه أن يقلقني بالمستوى الذي يمكن أن يسوء فيه خلقي مع الناس،

بل لا يمكنه أن يؤخّرني حتى عن موعد نومي الليلة.

ولعلّ من عمدة الأسباب في تفاوت سلوك الشخصين المذكورين، هو أن أحدهما لم يكلّف نفسه عناء ترويض ذاته وتأديبها وتعويدها على الصلاح الحقيقي، بينما الثاني كما بدا من سلوكه كان أكبر همّه صقل شخصيته من خلال تهذيب نفسه بالقدر الذي يجعلها طيّعة لأمر بارئها سبحانه وتعالى.

إذن يتبيّن من ذلك أنّ طيب المخالقة ينتفع بها صاحبها قبل أيّ شخص آخر، سواء على صعيد الدنيا أو الآخرة.

وعلى كلّ التقادير فإذا كان لدى المرء لسان جميل، أو نظرة إيجابية، أو مصافحة حارّة، أو ظنّ حسن، أو عمل صالح فإنّ هذه وغيرها من مظاهر طيب المخالقة وإن كانت ستعود عليه بالنفع أولاً، إلا أنها ستشمل غيره أيضاً بمنافعها ومردوداتها الإيجابية.

ومن روائع البلاغة في تعبير الإمام السجاد عليه السلام أنه ضمّ إلى طلبه من ربّه المتعال، في طيب المخالقة، السبق إلى الفضيلة. أي بعد أن يتأكد الإنسان من طيبه الداخلي وحسنه الذاتي، له أن يتقدّم خطوة نحو الإمام،

ليشرع في ممارسة الفضائل، ثم يسمو إلى مرحلة التسابق أو السبق فيها.

فالمرء إذا كان طيّباً في داخله فإنه لا يتوقع الفضل والإحسان من الآخرين، بقدر ما يكون دَيدَنُه الإسراع في عمل الخير وإنجاز الصالحات فيزور قبل أن يزار، ويحاسب نفسه قبل أن يُحاسب غيره، ويبدأ بالسلام قبل أن يضطرّ إلى ردّه، ويَحترم قبل أن يُحترم، إلى غير ذلك من شواهد الإسراع في الخيرات وطيب التعامل الذي يمثّل الأرضية الصالحة لرغبة الفوز في ممارسة الفضائل.

وعلى ما ذكر من الإبتدار في السلام، لقد أكّدت الروايات بأنه من المستحبّ أن يبدأ الإنسان بالسلام على كلّ من يلقاه بل حتى على زوجته وأطفاله عند دخوله البيت، كما في قوله ﷺ: «**إن أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام**» وقوله ﷺ: «**وإذا دخل أحدكم بيته فليسلّم فإنه ينزل البركة وتؤنسه الملائكة**».

كما أن من وراء إبتدار السلام على من هم أدون منك قناعة تامّة لديك، مفادها بأنك ستحرز بذلك كثيراً من الفضل والدرجة وتربية الذات، فضلاً عن تعليم الآخرين هذا السلوك الرصين.

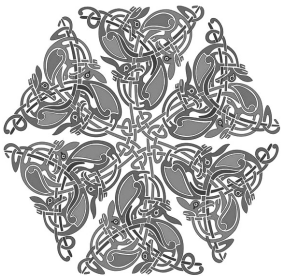

الحلقة الثالثة والعشرون

من

سبيل الزاهدين

قول الحق

يقول الإمام زين العابدين في فقرة جديدة من فقرات دعاء مكارم الأخلاق

«اللهمَّ صلِّ على محمد وآله، وحلّني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتقين... وقول الحقّ وإن عزّ»

ان واحدة من أهمّ مصاديق حلية الصالحين وزينة المتقين التي يسأل الإمام زين العابدين عليه السلام ربّه الجليل سبحانه وتعالى عنها قول الحق، وإن قلّ ناصروه وكثر مناوئوه وتبعته المخاطر والصعوبات.

وقبل أن نشرع في كلامنا لتوضيح فقرات الدعاء لا بد لنا أن نؤكّد نقطتين هامّتين في الموضوع، هما:

١ـ إنّ قول الحق يعدّ من أهمّ أسس الصلاح والتقوى للفرد المسلم، يؤيّد ذلك ما صدر عن أهل البيت عليهم السلام من القول بالحق دائماً، ولولاه لما كنّا اليوم مسلمين ولما بقي للإسلام والإيمان من أثر، خصوصاً في ظلّ محاولات الحكّام الظلمة، الهادفة إلى محو الدين وطمس أهمّ معالمه

ورموزه.

٢ـ لقد أمرنا الدين الحنيف مراراً وتكراراً أن نسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق للصلاح والتقوى، وأن نشفع سؤالنا هذا بالعمل والتطبيق، قال تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾[١] في إطار التحريض على الدعاء وإدراك أهميته. وقال أيضاً: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾[٢] موضحاً أنه ينبغي أن يكون في ضمير الفرد وعقله توجّه خاصّ أو قناة خاصّة بالسلوك الصالح المصدّق لما يلهج به في الدعاء.

لماذا القول وليس العمل؟

جرت العادة في القرآن الكريم والأحاديث والروايات الشريفة على حثّ الإنسان على العمل أكثر من القول، نظراً لأن العمل هو الركيزة الأساسية في الإنسان ، باعتباره يمثّل انعكاساً لجوهره وحقيقته. فإنّ تلفّظ الفرد بشهادة «لا إله إلا الله» أسهل عليه ملآيين المرّات من العمل وفق شروطها، إذ العمل بهذه الشهادة المقدّسة يستوجب في كثير من الأحيان تقديم التضحيات الجسيمة وتحمّل المصاعب العظيمة.

(١) الفرقان/ ٧٧

(٢) النجم/ ٣٩

ولكي يهون الأمر علينا في سبيل ذلك فلابدّ لنا من نظرة إلى من نصّبهم المولى تعالى لنا قدوة، ليؤنس وحشتنا بعظيم رزئهم، ويشحذ هممنا بطول أناتهم وجميل صبرهم، فلقد كان الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه نموذجاً أوحداً في العمل بمقتضى شرائط التوحيد، فكلّفه ذلك الأمر أن يكون جليس بيته لمدّة خمسة وعشرين عاماً، وهو الأعلم والأفضل والأتقى والأقضى من بين الناس بعد رسول الله ﷺ!!

وكذلك كان شأن الكثير من عظماء الإسلام ممن شايعه واقتدى به صلوات الله عليه مثل الصحابيّ الجليل أبي ذر الغفاري رضوان الله تعالى عليه الذي التزم وعمل بشهادة التوحيد بكامل شروطها حتى وصفه رسول الله ﷺ بأنه أصدق ذي لهجة، فمات بسبب ذلك نفياً وغربة ووحدة وجوعاً، بعد أن كابد الفاقة والجوع قبل ذلك فترات طويلة.

ومن هنا قد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: لماذا قال الإمام السجاد عليه السلام في هذا الدعاء: «**قول الحق**» ولم يقل العمل بالحق؟

مما لاشك فيه أن لمعاريض كلام أهل بيت النبوّة عليهم الصلاة والسلام جوانباً عديدة وآفاقاً مديدة، وما غاب عنّا أكثر مما نستحضره،

إلا أن جملة ما يمكن قوله بهذا الصدد هو أن المجتمع الإسلامي كما هو بحاجة إلى فعل يترجم أقواله ليصدق عليه أنه مجتمع إسلامي، كذلك هو بحاجة إلى قول وتصريح بالموقف الحقّ والحازم، ليكون كل فرد من أفراده المكلّفين بالمساهمة في بنائه على بيّنة من أمره.

أما إذا اقتصرت حياة الفرد على الجلوس في الدار أو أي مكان آخر يعنيه أو لا يعنيه، دون أن ينبس ببنت شفة فيما يقتضيه منه الحق، وتبعه الآخرون من أفراد المجتمع في الإحجام عن القول والتصريح الواضح به، فإنّ الهدف المتمثل ببناء مجتمع الصلاح والتقوى لن يتحقق أبداً.

إذن، لكي يتحقّق المجتمع الصالح، فهو بحاجة إلى القول أيضاً كما هو بحاجة إلى العمل، ولعلّ الإمام استعمل هنا كلمة «قول» لإرادة هذا الأمر، وإن كان ثمة تناوب بين هاتين المفردتين لغة وشرعاً، حيث قد يُطلق أحدهما ويراد به الآخر، كقولهم: قال بيده هكذا أي عمل هكذا، إلا أن الأمر الثابت أنه لا يكفي من أجل حصول التغيير في المجتمع أن يعمل الإنسان بالحقّ وحده، بل لابد له من الدعوة إليه، وقول الحق، وعدم مداهنة الباطل.

ما هو الحقّ؟

بعد أن تناولنا المفردة الأولى بشيء من التوضيح، نأتي إلى بيان معنى المفردة الثانية وهي الحقّ، فنقول:

عندما يقرأ الإنسان القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت عليهم السلام أو يتابع كتب اللغة، يجد أن لمفردة الحق معاني متشابكة ومتداخلة، وكلّ معنى له مفردته الخاصّة به، ولكن الحقّ من خلال زاوية وشعاع خاصّ يعني العدل تكويناً أو تشريعاً أو وصفاً. فمن كان يرعى خروفاً وحمامة مثلاً، فإنه لا يسعه أن يعطيهما من الطعام والشراب بقدر واحد، بل لابد من إعطاء كلّ منهما ما يناسبه، ولو أعطى الخروف بقدر ما يعطي الحمامة مات الخروف جوعاً، كما أنه لو أعطى الحمامة بقدر ما يعطي الخروف ماتت الحمامة تخمةً.

وعلى ذلك فإن العدل شيء والمساواة شيء آخر، فليس كلّ عدل يقتضي مساواة، ولا كلّ مساواة تكون عدلاً.

هذا عن معنى الحق من هذه الزاوية، وذكروا أن من معانيه هو الصحيح، فيكون القولُ الحقّ، هو الصحيح من الأقوال، وأمثال ذلك من المعاني والأبعاد، ولكن ما يعبّر تعبيراً أصدق هو القول بأن الجامع

لهذه المعاني هو تصوّر الحق تصوّراً خاصّاً بالمجال المتعلّق به والحيّز المستعمل فيه. فالحقّ في الفتوى يحدّده الفقيه، والحقّ في البناء يعلمه المهندس، والحقّ في الصحّة يميّزه الطبيب، والحقّ في التاريخ والسيرة من اختصاص المؤرّخ، وهكذا..

كما إن قول الحق قد يصدر عن الفاسقين أيضاً أحياناً، ولكنه لا يعبّر عن زينة التقوى ولا حلية الصالحين، إنما الذي يعبّر عنهما قول الحقّ حينما يعزّ.

الحلقة الرابعة والعشرون

من

سبيل الزاهدين

تكملة قول الحق

ما زال الحديث حول فقرة الدعاء التي تقول: «**وقول الحقّ وإن عزّ**» وتم الكلام عن معنى قول الحق ولكن السؤال الذي سيطرح في بدء الحديث هو: كيف يعزّ قول الحق؟

يقول أهل اللغة: إن العزّة تطلق مادّتها حينما يجتمع شرطان في مورد واحد، وذلك بمختلف اشتقاقاتها، الأول: أن يكون هذا المورد نافعاً، والثاني: أن يكون نـادراً، فمثلاً نجد الناس جميعاً وبمختلف حالاتهم وأوضاعهم بحاجة إلى الاوكسجين، وإذا انقطع عنهم تعرّضوا للموت، ولكن الأوكسجين لا يسمّى عزيزاً رغم نفعه، لأنه ليس نادراً، وهكذا الشيء النادر عندما يكون قليلاً أو عديم الفائدة لا يسمّى عزيزاً، لضآلة دوره في الحياة قياساً بغيره.

بينما الماء الذي تتوقّف عليه الحياة، وهو الذي جُعل منه كل شيءٍ حي، يصبح عزيزاً، بل ولعله يكون أعزّ شيء إذا ما ندر توافره أو حيل بين طالبه وبين حصوله كما حدث ذلك للإمام الحسين وأهـل بيته وأصحابه عليهم صلوات الله وسلامه في واقعة الطف الفظيعة.

والقول بالحقّ، أمر جيّد ونافع، ولكن ما يجعله حلية للصالحين وزينة للمتقين كما أوضح ذلك الإمام السجاد عليه السلام من خلال دعائه عزّته وحينما يكون التفوّه به نادراً بسبب المخاوف والمخاطر، كالتعذيب والحرمان والاعتقال وسائر الصنوف الأخرى التي يستخدمها الظالم لإرهاب من يجترئ فيقول الحق بوجهه.

وأول شاهد يخلده التاريخ على قول الحق السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام فلقد كانت السيدة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام أول المبارزين في قول الحقّ بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله حين فشا الباطل فأصبح الحق عزيزاً، فكان من أولويات مبادرتها عليها الصلاة والسلام هو فضحها للمؤامرة – أو قل المؤامرات – التي حيكت ضد الإسلام واستهدفت جوهره وصميمه، حتى تسنّى بفضل قولها الحق أن حفظت الدين عن الدمار التامّ، وأبقت للمسلمين ما يتمسّكون به، وإلا لأفلح الشياطين في إرجاع الناس إلى الجاهلية الأولى.

ومن هنا، ينبغي لنا أن نفهم وندرك عمق تصريح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حينما أجاب من سأله عن أفضل الجهاد، فقال صلى الله عليه وآله: «**أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر**»

و ثمة ملاحظتان هنا ينبغي الإلتفات إليها:

الأولى: أن الإمام عليه السلام قال في الدعاء: «**وقول الحق وإن عزّ**» وهو ينطبق مع النص النبويّ الشريف الذي ذكرناه آنفاً حيث قال صلى الله عليه وآله: «**كلمة حق**».

الثانية: اعتبار قول الحق بوجه الظلمة جهاداً بل أفضل الجهاد كما في النبوي الشريف، إنما هو إشارة إلى مدى أهميّته وخطورته، فضلاً عن ندرة المتصدّي له. وفي هذا مساوقة بينة تؤكد ما ورد في قول الإمام السجاد عليه السلام : «**وإن عزّ**».

ثمّ إن هذا الحديث الشريف ورد بلفظ «**عند إمام جائر**» أيضاً، وهذا يستدعي التأمّل أيضا، نظراً لأن مفردة «سلطان» ذات مفهوم أو استعمال أوسع من مفردة «إمام». ففي المصطلح الإسلامي، إذا جار الحاكم غير المسلم سمّي سلطاناً جائراً، أما إذا جار الحاكم المسلم وظلم، فيسمّى إماماً جائراً.

والجهاد ضدّ إمام الجور الحاكم المسلم الظالم بقول كلمة الحقّ بوجهه، يعدّ أعظم حتى من الجهاد ضد سلطان الجور الحاكم الظالم غير المسلم لأن ما يضعف الإسلام ويؤدّي إلى تآكله من الصميم وفي

نفوس المستضعفين من المسلمين ويدفع بغيرهم إلى الإعراض عنه، هو ما يقترفه إمام الجور، مثل يزيد بن معاوية لعنهما الله، الذي حكم باسم القرآن والرسول، ولكنه كان أعدى أعدائهما، ولقد اختطّ خطاً في الجريمة والتجاوز على مقدّسات الدين ورموزه، لا تزال مظاهره فاعلة في جسد الدين والأمّة، ظاهرة في كلّ من تقمّصها من بين الحكّام الذين توالوا بعده وهم يحملون معاول التحريف بالدين والتنكيل بالأمّة كلّما تهيّأ الظرف لهم.

ومن هنا أكّدت الأحاديث الشريفة بأن ظالمي آل محمد لو كانوا قد امتنعوا عن الظلم والاضطهاد، وفسحوا المجال لأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام بممارسة دوره بعد رسول الله ﷺ، لما بقي على وجه الأرض كافر، لأن الإسلام الذي يحكم به علي بن أبي طالب ويحكمه ضياء ورحمة للعالمين، وكلّ من لم يكن جاهلاً أو معانداً، فمن طبيعته أن يبحث عن الضياء ليلتزمه ويهتدي به، كما أن إسلام الإمام عليه السلام إسلام جميل، وكلّ من لم يكن معقّداً أو معانداً، فمن ديدنه البحث عن الجمال، وكذلك إسلامه عليه السلام إسلام لين وعطف وحسن ورفق، ومن ذا الذي لا يبحث عن مصاديق هذه المفردات الرائعة؟!

أما إسلام يزيد كنموذج ورمز للجور فهو إسلام مزيّف تتنفّر منه النفوس وتأباه.

إن كلمة الحق العزيزة غالباً ما تقدّم قائلها إلى مذبحها، كما فعلت مع الشاعر الصنديد دعبل الخزاعي. كيف لا، وما قاله في إمام الجور هارون العبّاسي يكفي وحده لتعريض حياته للخطر؟! فاضطرّ إلى التشرّد والتخفّي بين البلدان، وكان مما قال:

قبران في طوس خير الناس كلهم
وقبر شرّهم هذا من العبرِ
لا ينفع الرجس من قرب الزكي ولا
على الزكيّ بقرب الرجس من ضرر

ومن آيات العظمة الفاطمية:ـ

روى أصحاب الحديث ومن مختلف الطرق إسرار رسول الله ﷺ بضعته الصدّيقة الطاهرة عليها السلام حين دنت وفاته وقوله لها: «**ليس أحد من نساء المسلمين أعظم رزية منك**».

وليس سبب هذه الرزية كما يشهد بذلك الجوانب والوقائع التاريخية كافة إلا قولها كلمة الحق في باكورة التتويج الذي أفرزته شوراهم، وقبل

ذلك قد علم مناوئوها باستعدادها وإصرارها على قول كلمة الحق وعدم اكتراثها بمن يتنازل أو ينهزم، خوفاً أو طمعاً بمن صيّر نفسه إماماً للمسلمين وهو الذي صرّح بنفسه في أكثر من مناسبة «وُلّيتكم ولست بخيركم»، ناهيك عن صنوه وقرينه الذي كشف عوراته للناس عندما أعلن سرّاً وجهراً بأن جميع الناس بمن فيهم النساء أفقه منه، وهو الذي أصدر حكم الإعدام الجماعي ضدّ من كان طوله يقلّ عن خمسة أشبار من أشباره اللعينة في إحدى الفتوحات، حيث استعلمه قائده عمّن يقتل ومن يذر....

ترى، لماذا رزئت الصديقة الزهراءعليها السلام وهي الأعلم والأفقه والأتقى والأزهد، بل كيف ولماذا تكون رزيّتها الأعظم من بين سائر النساء المسلمات؟

يتّضح الجواب عن هذا السؤال في كونهاعليها السلام تحمّلت مسؤولية الحفاظ على الإسلام مع زوجها الإمام أمير المؤمنينعليه السلام، عملاً بوصية أبيها نبيّ الإسلام محمد المصطفىصلى الله عليه وآله وذلك عبر كلمة الحقّ التي قرعت بها سمع حشود المسلمين، حيث فرّ الأكثرون وولّوا الدبر، حتى أنها اضطرتعليها السلام إلى مكاشفة عدوّها بالحرف الواحد حين قالت له: «**والله**

لأدعونّ الله عليك في كل صلاة».

ما أشد بيان عظم رزيتها عليها السلام وهي تتخطى الرقاب لتدلي بخطبتها عليها السلام! وما أروعها من كلمة حقّ عند إمام جائر، تصدر ممن يغضب الله لغضبها ويرضى الله لرضاها، لترسم لنا خطّ الإسلام الأبيّ، وتقول للتاريخ والأجيال: هذا هو الإسلام الأصيل الذي بُعث به أبي صلى الله عليه وآله.

ولذلك، فإن التوفيق لقول الحق وإن عزّ وندر، يعدّ من علامات التقوى وزينتها والصلاح وحليته، كما قال الإمام السجاد عليه السلام، ويتحقّق ذلك بالطبع ضمن شروط وحالات حدّدتها كتب الفقه في مظانّها.

ثم ليعلم المعرضون عن إظهار قول الحقّ بوجه الجبابرة والطغاة، بأنهم ليسوا من الصالحين ولا المتّقين، وإن كانوا يصلّون ويصومون، لأنهم بإعراضهم هذا إنما يداهنون الظالمين الجائرين الذين لا يهمّهم صلاة من صلى أو صوم من صام، بقدر إهتمامهم بتلقّي فروض الطاعة وإبداء الصمت والتسليم من قبل رعاياهم.

إلاّ أنّ مولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام آلت على نفسها إلا قول الحقّ بوجه إمام الجور بل أئمة الجور، وإن كان يستجلب لها الإمعان في

ظلاماتها من قِبلهم وسلبها راحة العيش. والأمر هكذا قد تم فعلاً بعدما أنهت الإعلان في خطبتها حتى وصل الحال بهم أن سلبوها حق توديعها وتشييعها من قبل المسلمين.

وهذا حريّ بأن يدفعنا إلى الاقتناع بأننا إن أردنا التخلّق بالأخلاق الحميدة ونبذ ذمائم الأخلاق، فعلينا أن نتمسّك بقول الحق الذي هو أساس التقوى والصلاح، حينما يقلّ ناصروه ويكثر مناوئوه ويعزّ قائله ويكثر الصامت عنه.

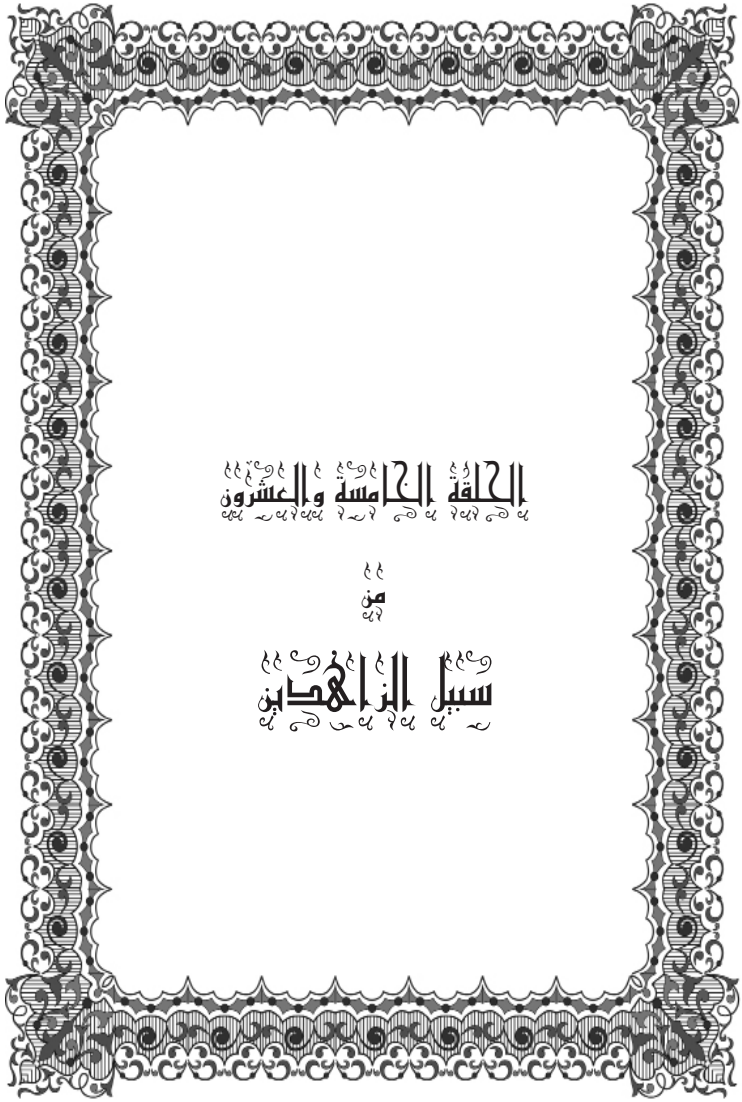

الحلقة الخامسة والعشرون

من

سبيل الزاهدين

الخير والشر

يقول الإمام في دعائه :

«**واستقلال الخير، وإن كثر من قولي وفعلي، واستكثار الشر، وإنّ قلّ من قولي وفعلي، وأكملْ ذلك لي بدوام الطاعة...**».

لدينا هنا نكات تربوية:-

من المسائل التربوية الأساسية والأصلية التي تتفرّع عنها معالم الصلاح والخير ضرورة أن يستقلّ الإنسان الخير الصادر عنه، وأن يستحضر هذا المعنى دائماً ويلقّن نفسه به باستمرار، وأن يلاحظ اللوازم والتلازمات التي أدّت إلى صدور فعل الخير منه، فلا يعتبر سهمه في إنجازه هذا ذا خطر عظيم.

وحريّ بالإنسان المؤمن المستقلّ لفعل الخير في نفسه أن يوكل أمر تقييم ما أنجزه إلى الله عزّ وجلّ، فهو خير الحاسبين وأكرم المعطين.

إن استقلال الخير لا يعني تجاهله واحتقاره أبداً، لأن تجاهل عمل الخير واحتقاره يفضي إلى تجاهل الوجه المقصود به، وهو الله سبحانه وتعالى.

ينبغي الوصول بفعل الخير من خلال استقلاله إلى حدٍ يجد الإنسان فيه أنه لا يستطيع أن يستغني عن الاستمرار بفعل الخير والمواصلة فيه، لئلا يكون مصداقاً لقوله تبارك اسمه: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**﴾[1].

أي أن الإنسان يمكن أن ينحرف فيما لو أصابه بعض الغنى المادّي، والغريب أنك تجد بعض الناس ينحرفون لمجرّد توافرهم على بعض الصالحات من الأعمال! فتراهم مغرورين مزهوّين، ولذلك يجب على الفرد أن يعرف بأن استقلاله للخير يعني إيجاده للدافع نحو ممارسة العمل الصالح والإكثار منه وعدم الإكتفاء بما قدّم.

لذا نرى من خلال طلب الإمام السجاد عليه السلام بروز جملة نقاط جوهرية، وهي:

١. يعلّمنا أن نحذو حذوه في كيفية إستدرار المدد الإلهي.

٢. يكشف لنا الطبيعة الإنسانية الخاصة بهذا الصدد.

٣. يؤكد قدرة الإنسان على تحقيق هذه المهمة.

---

(١) العلق/ ٦-٧

٤. يساعدنا على أن نخلق في داخل نفوسنا صفة استكثار الشرّ وإن كان قليلاً، قولاً أو فعلاً.

وذلك لأنّ إستكثار قليل الشر يعني إيجاد الرادع الذي يحول دون ممارسة المزيد من الأخطاء، فضلاً عن عدم التجرؤ على الله عزّ وجلّ عبر إستصغار السيئات والتغافل عنها.

إن خطورة الذنب قد يكون لها بعدان:

الأول: الخطورة المادية، وهي التي تمسّ كلاً من الفاعل للذنب والمرتكب بحقّه.

البعد الثاني: الخطورة المعنوية، فينبغي للعبد أن يلاحظ الرب الجليل والإله العلي العظيم الذي يُعصى، بغضّ النظر عن كمية المعصية ونوعيتها.. ولعل خطورة الذنب وفقاً للبعد الثاني لها من النتائج ما هو أسوأ مما للبعد الأول.

قد تمزح مزحة بسيطة أو غير مقصودة، ولكن أحدهم قد يتألّم بها دون أن تشعر.. وقد تمسّ بيدك وجه شخص ما وأنت تحاول طرد حشرة من الحشرات، فينزعج لذلك.. في مثل هذه الحالات أيضاً يجب عليك

أن تستكثر خطأك وتستعظمه وإن كان غير مقصود، فتتقدّم بالاعتذار لمن وقع الخطأ بحقّه..

وهذا الحثّ على مثل هذه الملاحظات يعكس أسلوباً تربوياً فذّاً، يصنع من الإنسان موجوداً رهيف الحسّ يشعر بالمسؤولية الدائمة عما يبدر منه من تصرّفات وإن كانت صغيرة أو قليلة، فيتنبه، بينما الغفلة عن الصغائر وعدم الإكتراث بها وإهمالها يمكن أن يُحوّلها إلى كتل كبيرة كما هو الحال في كرة الثلج التي تبدأ في تدحرجها من قمّة المرتفع بحبات أو ذرات بسيطة من الثلج لتفاجئ من هم في الأسفل بوجودها الضخم المؤذي ولذا يجب أن يتنبّه الفرد عبر هذا السلوك التربويّ المشار إليه بأنّ عدم استكثار قليل الشرّ يعني استصغاره، والحال أن الاستصغار بحدّ ذاته يعتبر من الكبائر، وهو ماتمّ التحذير منه في كثير من الروايات باعتباره تجرّياً على الله سبحانه وتعالى والعياذ بالله.

إنّ للمؤمن مع نفسه حالات يمكن من خلالها أن يستقريء مدى ارتباطه بساحة القرب المولوي، يمكن تصويرها بما يلي:

أولاً: لو قدّر للإنسان المؤمن أن يصلّي صلاة الليل في ليلة باردة،

فذاك فعل خير متميّز يستحق عليه جزيل الثواب، ولكي يتعوّد على ديمومته والإكثار من فعله، فعليه أن يستقلّه عبر إيمانه ويعلم بأن ليس له سوى نيّته في عملية إنجاز هذه الصلاة، وأن القسط الأوفر فيها هو توفيق الله سبحانه وتعالى، ثم نعمه الكثيرة التي هيّأت له إمكانية الأداء، وحينما ينظر المرء بعين العدل الإنصاف يجد أنه ليس له من فعله ذاك سوى جزء بسيط للغاية، وإن كان قد ترجم واقعاً متعدّد الأطراف واسع الآفاق.

وكذلك الحال لو بدأ بالسلام على أخيه المسلم أو صام صوماً استحبابياً إلى غير ذلك من الصالحات، فلا ينبغي له استكثاره أبداً، وإن باهى الله تعالى به ملائكته أجمعين، لأنه يجب أن يعي الإنسان بأن الله تبارك وتعالى غنيّ عن العالمين.

ثانياً: إن ارتكاب الفرد لأيّ سيئة، مهما كان حجمها وبعدها، يعدّ بحدّ ذاته إصراً كبيراً، ولو شاء الله عزّ اسمه لآخذه على ذلك وأذاقه وبال نقمته، لأن ممارسة الخطيئة بغضّ النظر عن حجمها وطبيعتها، هي بمثابة التحدي والجُرأة على الله عزّ وجلّ، من خلال الإستخفاف والطعن في تشريعه، وكأن الإنسان لدى ممارسته للذنب يريد أن يثبت

بطريق باطل وجوده بإزاء وجود الله وجبروته وأوحديّته في حقّ التشريع وفرض الإرادة وبسط المشيئة.

ترى ما هي قيمة الإنسان الذليل الفقير حين يضع نفسه بإزاء خالقه العزيز الغني، كي يسوّغ لنفسه بأن يرتكب ما يرتكب من الخطايا والذنوب، ثم لا يستكثرها ويصرّ عليها مستكبراً مرحاً وكأنه قد بلغ الجبال طولاً وخرق الأرض قوةً!! وأنّى له التناوش وهو الكائن الضعيف لولا عقله الذي زيّنه به البارئ تبارك وتعالى، وأوجب عليه إعماله لمعرفة قيمته من خلال الاطلاع على خبايا نفسه، ثم ليتسنى له بعد ذلك معرفة ربه. لهذا وغيره يجدر بالفرد المؤمن أن يكون حذراً للغاية في موقفه من الخطأ، فيحصي على نفسه كلّ زلةٍ وهفوة، ضمن برنامج دقيق يقضي بمحاسبة النفس، لئلا يتسع عليه الخرق، ولات حين مناص.

روي أن رسول الله ﷺ نزل بأرض قرعاء، فقال لاصحابه: «**ائتوا بحطب**». فقالوا: يا رسول الله، نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب. قال: «**فليأت كل انسان بما قدر عليه**». فجاؤوا به حتى رموا بين يديه، بعضه على بعض.

فقال رسول الله ﷺ: «**هكذا تجتمع الذنوب. ثم قال إياكم والمحقرات من الذنوب، فإن لكل شيء طالب، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيءٍ أحصيناه في إمام مبين**» .

وبما أن الإنسان مبتلىً بالنفس الأمّارة بالسوء ووسوسة الشيطان اللعين، فإنه يغفل عن هذا الواجب الذي من شأنه تحديد هذه العملية المصيرية التي يفترض لها أن تكون أداة مؤشرة لطبيعة حياته في الدنيا وبيان موقعه في الدار الآخرة.

ولأجل أن يخلّص المرء نفسه وإلى الأبد من هذا دفعة واحدة، تراه بحاجة إلى تصميم قاطع الشعور الشيطاني المتحدّي، تبعاً لأهمية الموضوع وجسامته.

ويتخرّج على تلك الفريضة الأخلاقية في استقلال الخير واستكثار الشر أن نبحث بكلّ دقّة عن أنواع الواجبات الملقاة على عواتقنا، وبالأخص تلك التي لا نعيرها أهمية بداعي جهلنا أو تجاهلنا، لتداركها والعمل بمقتضاها، مثل واجب أداء حقوق الجار وما ينبغي له علينا من العلاقة الطيبة وتفقد أوضاعه والدعاء له، كما كانت تفعل السيدة

الصديقة فاطمة الزهراء ﷺ حيث رآها ولدها الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في مصلاها تعبد ربّها وتدعو للجيران حتى طال بها المقام إلى الفجر، فسألها عن سبب اهتمامها الكبير بالجيران وعدم ذكرها لنفسها أو أفراد أسرتها، فأجابته قائلة: «**الجار ثم الدار**».

هذا فضلاً عن كثير من الواجبات المنسية التي يتوقّع من الإنسان التركيز عليها لكي لا يفاجأ يوم القيامة بكتاب يحوي ما غاب عنه أو غيبته عامداً بنفسه فيتضاعف لديه الإحساس بالندم والحسرة، وقد صورت الآية القرآنية الكريمة هذه الحقيقة بقول الله تعالى: ﴿**وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾[1] . حين يرى الناس أنفسهم صفر اليدين بسبب ما نسوا من الواجبات أو تناسوه، أو بما استكثروا من فعل الخيرات، فحبطت أعمالهم وهم لا يشعرون، حين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، حتى غفلوا عن حقيقة أن ما كانوا قد فعلوه من الخير إنّما هو بهداية الله تعالى ومن فضله، فهو الذي زوّدهم بنعمه الجزيلة، وهو الذي هداهم ومهّد لهم السبل وسهّل عليهم فعل الخير.ولقد روى لنا التاريخ ما قام به أهل بيت نبينا ﷺ في هذا الإطار لنتّخذه نبراساً تسير وفقه حياتنا الإيمانية.

(١) الزمر/ ٤٧

كما روي عن الإمام الحسين عليه السلام حيث قصده فقير، فقدّم له أربعة آلاف دينار، أي ما يعادل عشرة كيلوات من الذهب، واعتذر منه من وراء الباب على أنه لو كان باستطاعته تقديم الأكثر لفعل.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّقنا للعمل بهاتين الصفتين، الفاضلتين، الكريمتين اللتين تحملاننا إلى شاطئ الإطمئنان الروحي والنفسي، لنهتدي بفضله ومنّه إلى الإلتزام بسائر السجايا الأخلاقية والتربوية الحميدة، إنه ولي التوفيق.

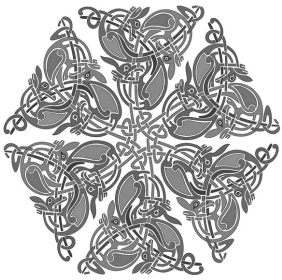

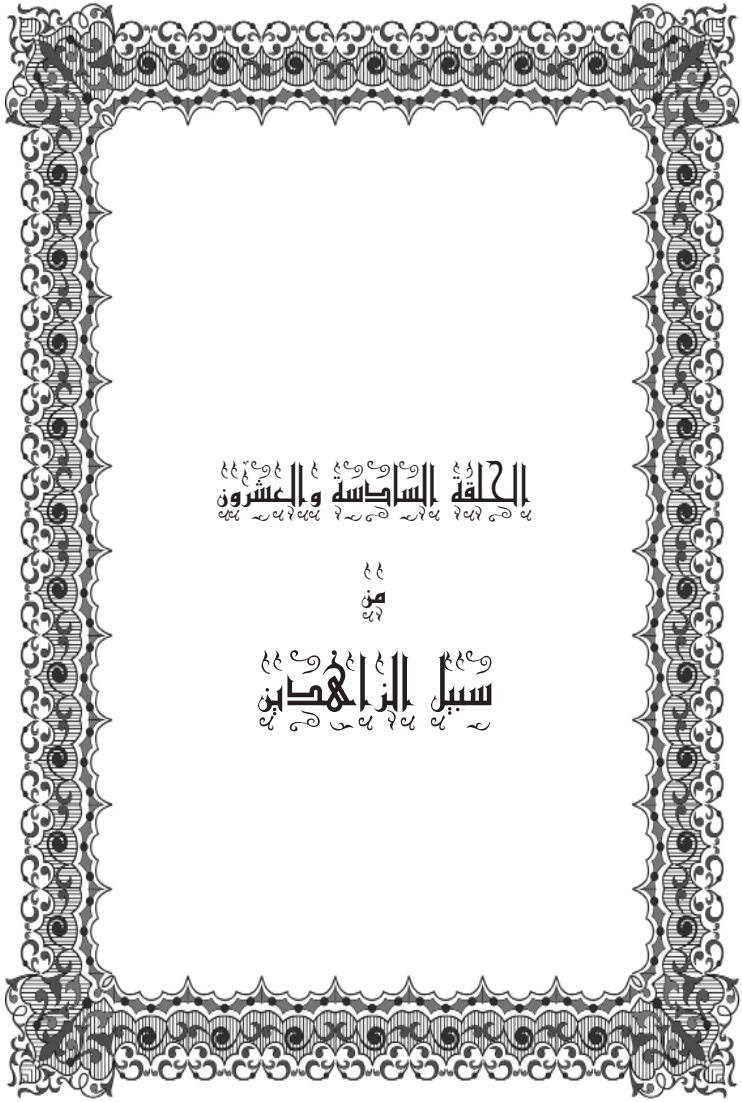

الحلقة السادسة والعشرون

من

سبيل الزاهدين

معادلة بين الخير والشر

يقول الإمام عليه السلام في دعائه:

«**واستقلال الخير، وإن كثر من قولي وفعلي، واستكثار الشر، وإنّ قلّ من قولي وفعلي، وأكملْ ذلك لي بدوام الطاعة...**».

يطلب الإمام زين العابدين عليه السلام من الله تعالى، ويعلّمنا أيضاً أن نطلب منه عزّ وجلّ أن يخلق في نفوسنا الوعي والشعور باستقلال ما يصدر منّا من الخير، فلا نستكثره فنتوقّف عنده، وإنّما نستعينه تبارك وتعالى ليكرّس فينا الإصرار الدائم على ممارسة الأعمال والأقوال الصالحة، لنكون بمثابة شعلة دائمة التوهج، عميمة النور، شديدة الإضاءة تزداد تألّقاً بمرور الزمن، وكذلك نطلب من الله المنعمِ سبحانه، أن يخلق في ذواتنا الشعور الدائم باستكثار ما يصدر عنا من أعمال وأقوال طالحة، أي أن يحوّل ذواتنا عبر ما نصمّم ونعزم إلى ذواتٍ تكره الشرّ بكلّ صوره وتستعظمه.

وهذا الشعور إنما ينبغي أن ينبع من إدراك الإنسان بأنّ ما يقدّمه من الصالحات على فرض كونها صالحات حقّاً، ومتوفّرة على الشروط

اللازمة للصلاح من إخلاص وعزيمة إنما هو في حقيقته قليل، بل لا قيمة له في واقع الأمر، إذا ما قورن بنعم الله تعالى، التي أنعم بها عليه، حيث خلقه ومنحه الفرصة في إثبات وجوده واجتياز امتحانه الذي يفترض فيه أن يكون قد أتمّه بنجاح. حقاً كم ستبدو تلكم الصالحات ضئيلة إذا ما قورنت بأبسط النعم التي يمطر الخالق بها مخلوقه، وكلّها عظيمة وجليلة في واقعها، هذا فضلاً عن استحالة مقارنتها بالرضا الإلهي والنعيم الأبدي الخالد في الدار الآخرة، الذي أعدّه الله تعالى لعباده.

فإذا اعتبرنا أعمالنا الصالحة ثمناً ونعمَ الله تعالى علينا مثمناً، لراعنا بخس الثمن وعظم قدر المثمن! هذا وإن الإنسان يجد كلّ أعمال الخير التي تصدر عنه لا شيء في مقابل استغناء الله تعالى عن العالمين.

ولا شك أن ابن آدم إذا ما استطاع السير في طريق استقلال الخير واستكثار الشر، فإنه سيصل إلى واقع آخر، وهو شعوره المتجدد بالتقصير والعبودية في آن واحد أمام ربه العزيز الجبار، فيتعلّق حينئذ به ليحقق شيئاً من السموّ والكرامة الحقيقية، ليصل إلى أعلى مقام يمكن أن يصله العبد، كما تحقق ذلك للأولياء والصالحين ممن أنعم الله عليهم

وأكرمهم بكرامة القرب منه.

أما المطلب الثاني الذي يتقدّم به الإمـام السجاد عليه الصلاة والسلام إلى ربه الكريم، ويعلّمنا ويرشدنا لأن نحذو حذوه، فهو الطلب من الله تعالى أن يخلق فينا الشعور باستكثار ما يصدر عنا من أعمال وأقوال ومعتقدات شرّيرة، ليكون هذا الشعور رادعاً يحول دون تمادينا بالانغماس في باطل الحياة الذي يؤول بابن آدم إلى عقاب الله وعذابه الشديد.

فأنت حينما تطلب من ربّك العزيز أن يحملك على استكثار الشرّ، وإن قلّ، فإنما يعكس ذلك الإصرار منك على استقباح الشرّ والباطل، لتتكون فيك فيما بعد ملكةٌ تنفّرك عنه وتكرّهه لديك، ولترقى إذ ذاك إلى رحاب العدالة التي من شأنها أن تقي ابن آدم عن ارتكاب الشرّ بكلّ صوره.

ولعل هذه الحالة النورانية قد بلغت ببعض الأولياء والصالحين إلى طيّ المسافات بعد تجشّم العقبات ليبلغوا عند عتبات العصمة التي تمثّل الذروة فيما يمكن للإنسان العادي من غير النبي والإمام أن يبلغها، هذا

من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن مرتكب الشر والجريرة ينبغي له أن يعلم بأنه بتصرّفه هذا إنما يتصرّف فيما لا ملك حقيقي له عليه، باعتبار أن الله سبحانه وتعالى هو المالك الحقيقي للخلق ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1]. فنفس الإنسان وكيانه ووجوده ملك صرف لله تعالى وحده، وهذا الملك صائر وراجع إليه دون سواه، وعليه، فابن آدم مدعوّ إلى مراجعة نفسه ومحاكمتها على ما ارتكبته من شرّ فيما لا تملك، إذ ارتكاب الشرّ يعني جملةً وتفصيلاً تجاوزاً وانتهاكاً لحرمة الخالق وسلطته على مخلوقاته، وأعني بالمخلوقاتِ الإنسان نفسه، وسائر ما يحيط به، ولا تخرج الجريرة المرتكبة عن نطاق كيان هذا الإنسان وحدود ما يحيط به.

ولذلك فإن الذنب مهما تضاءل في نظر صاحبه، فهو كبير في مقياس العدل الإلهي، هذا فضلاً عن كونه يعدّ استخفافاً بالقيم يجرّ لا محالة إلى استسهال اقتراف الجريرة، وبالتالي سيرى الإنسان نفسه أداة طيّعة في عموم حالة الإجرام وممارسة الجريرة.

(١) البقرة/ ١٥٦

والأمـر المفترض بالإنسان أن يقطع الطريق منذ البداية على وساوس نفسه وما يملي له الشيطان، لئلا يقع فيما لا يحمد عقباه، فينبغي والحال هذه أن يستشعر فداحة ما يصدر عنه من الأخطاء التي منعه الشارع المقدس عن الوقوع فيها.

هل يصدر الشرّ من الإمام عليه السلام ليستكثره؟!

لقد ثبت بالأدلة النقلية والعقلية القطعية عصمة أئمة آل البيت عليهم الصلاة والسلام ومنهم الإمام زين العابدين عليه السلام ، ومما لا شك فيه عدم صدور الشرّ من الإمام أن الإمام السجّاد عليه السلام شأنه شأن سائر أهل البيت صلوات الله عليهم لا يصدر عنه ترك الأولى، فضلاً عن ارتكابه الشر والعياذ بالله

أما طلبه عليه السلام من الله تعالى في أن يدفعه إلى استكثار الشرّ، وأن يكرّس فيه حالة استقباح الباطل وكرهه له، فينبغي النظر إليه من زاوايا أخرى بمنظار واسع غير ما يوحيه ظاهر العبارة.

وأولى تلك الزوايا، هي أن الإمام السجاد عليه السلام يهدف إلى إرشاد وتوجيه المؤمنين إلى أن يطلبوا من ربّهم ذلك، وكأنّه في هذا المقام يوحي إلى قارئي هذا النصّ الشريف بضرورة الإنتباه وتمييز الحالات النفسية

التي تتموّج في ذات كلّ إنسان لدى ممارسته لعمل الخير أو الشرّ، كما تقدّمت الإشارة إليها.

وثانية الزوايا أن مفهوم الشرّ ومصداقه يختلف باختلاف الظرف، تماماً كما هو الشأن في مفهوم الخير ومصداقه.

فصدور الحكمة باعتبارها مصداقاً من مصاديق الخير عن العالم الفقيه، يعدّ أمراً طبيعياً، لأن ذلك من مهمّة العالم، ولا يتوقّع صدور ما ينافيها عنه، أمّا صدورها عن الشخص البسيط فيعدّ أمراً ملفتاً للنظر، يشار إليه بالبنان.

كذلك الغنيّ إذا ما تصدّق باعتبار الصدقة مصداقاً من مصاديق الخير بدينار، فذاك ممّا لا يعدّ منه شيئاً عجيباً، إذ هو يملك من المال الوفير ما ينفي حاجته إلى الدينار الذي تصدّق به، أمّا الفقير المحتاج إلى ما يسدّ رمقه، إذا صادف أن وقع بين يديه دينار، ثم قام بالتصدّق به على فقير مثله، فإنّ عمله هذا يأخذ بعداً إيجابياً أوسع، بل لعل الله يثيبه بما لا يثيب به الغنيّ، لأن الأخير قد تصدّق وتوقّف عند هذا الحدّ وهو يعلم أنه لن يسوءه، أما الفقير فقد تصدّق بالدينار مع حاجته الماسّة إليه، فيكون بذلك قد أضاف إلى ممارسة عمله الخيّر هذا عملاً آخر، وهو الإيثار، الذي يعدّ من أشرف الأعمال وأعظمها ثواباً.

وما قيل في مفهوم الخير ومصداقه يمكن قوله في مفهوم الشر ومصداقه، إذ قد يصدر عن عالم مطلع على طبيعة الشرّ وأبعاده وعواقبه، وقد يصدر عن جاهل لا يعي عواقب ما يصدر من شرّ، ولذلك فإن الله سبحانه تعالى يغفر للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً كما لا يخفى أن الثواب الذي يمنحه الله للعالم على عمل الخير أكبر مما يتفضّل به على الجاهل، والحال أن العمل هو نفسه غير أن مفهومه ومصداقه قد تغيّر.

وثالثة الزوايا أن الإمام﵇ إنما يخاطب الربّ الجليل الخالق، بلسان الإنسان كمخلوق لا تنفكّ عنه لوازم المخلوقية، ومنها العجز، فإن المعصوم وإن كان أعلى من غيره بفاصلة غير متصوّرة، ولكن هذه الفاصلة رغم عدم إمكان تصوّرها تبقى دون الفاصلة اللامحدودة بين الخالق والمخلوق. فمن لوازم المخلوق العجز والمرض، والإرهاق والتعب، ولقد جاء في رواية سماعة أن الإمام الصادق﵇ قد حال المرض بينه وبين الصوم لمدة ثلاث رمضانات متتالية لم يصم فيهنّ ثم أدرك رمضاناً فتصدّق بدل كلّ يوم مما مضى بمدّ من الطعام ثم عافاه الله تعالى وصامهنّ، فهو﵇ يشعر في مثل هذه الحالة بالتقصير وإن رُفع عنه التكليف بسبب مرضه.

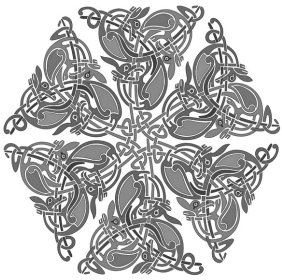

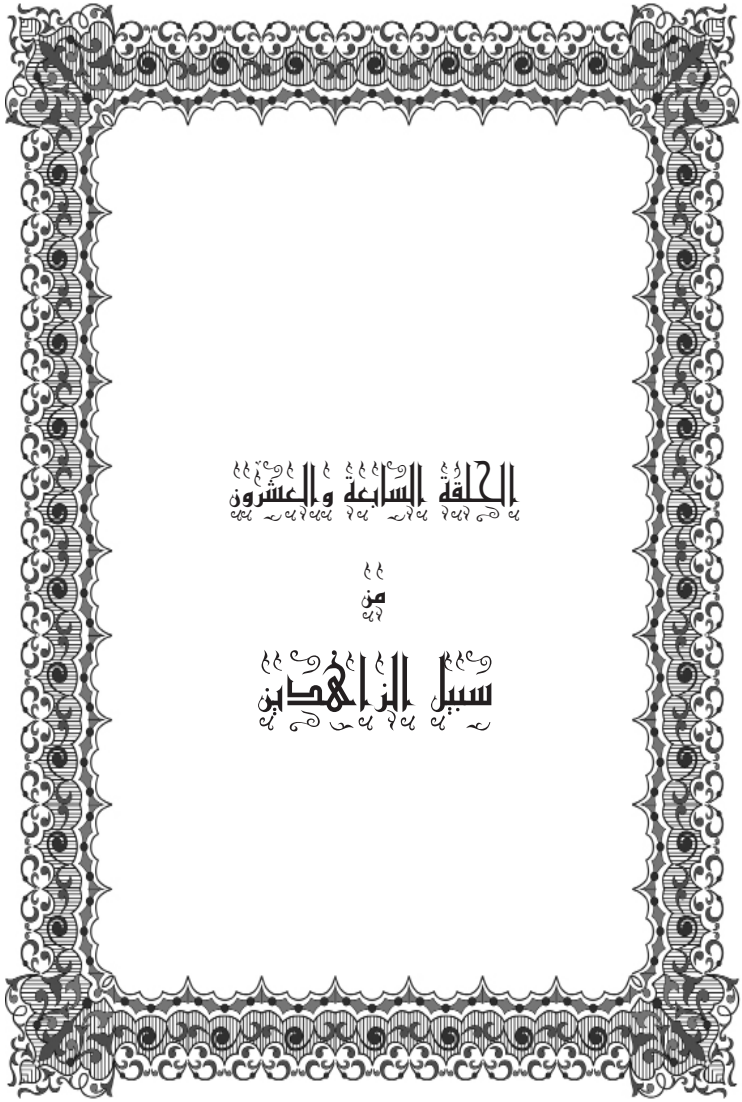

الحلقة السابعة والعشرون

من

سبيل الزاهدين

دوام الطاعة

يقول الإمام عليه السلام في فقرة اخرى من دعاء مكارم الاخلاق «**وأكملْ ذلك لي بدوام الطاعة**...». فبعد ان تم الحديث في الحلقة السابقة عن استقلال الخير واستكثار الشر نتحدث عن دوام الطاعة.

اذ يوضح الإمام السجاد عليه السلام بقوله الكريم: «**وأكمل ذلك لي بدوام الطاعة**» أن التمكن من استقلال الخير واستكثار الشر تتوقّف ثمرتهما على دوام الطاعة، إذ من غير الصحيح توقّف ابن آدم عند حدٍّ من الحدود في كدحه إلى ربّه جلّ ثناؤه، بل المفترض به أن يسأل ربّه ثم يعزم على ممارسة الطاعة بصورة دائمة، وإن كانت هذه الطاعة قليلة، فقد ورد في الأثر: قليل تدوم عليه أرجى من كثير مملول، والمرء إذا تعوّد فعل الخير القليل، تاق إلى أكثَرَ منه، لما سيشعر بذلك من اللذة، وبما سيتكرّس لديه من الرغبة في الحصول على الجزاء الأوفى.

روي ان احد المؤمنين كان بصدد تأليف كتاب خاصّ بالدفاع عن مقام أهل البيت عليهم الصلاة والسلام وإثبات حقّهم، فانشغل بجمع المصادر، حتى أوقفته الحاجة إلى أحد الكتب المهمة، فبحث عنه بحثاً

أضناه وأرهقه، ولكنه لم يوفَّق في العثور عليه، مما اضطره في الذهاب إلى مرقد أمير المؤمنين عليه السلام والتوسّل إليه في أن يهيّئ له وسيلة العثور عليه، وطال توسّله أشهراً، وهو خلال ذلك لم يكلّ أو يملّ من البحث عنه في المكتبات.

يقول هذا الرجل كنت ذات يوم قرب الضريح الطاهر للإمام صلوات الله عليه، واضعاً عباءتي على رأسي، منشغلاً بالدعاء إلى الله تعالى والتوسل بالإمام ليرشدني إلى ضالّتي، رأيت في الجبهة المقابلة من الضريح رجلاً قروياً يكثر في الإلحاح على الإمام في أن يجيبه لما يريد ويطلب منه حاجته ضمن كلمات حادّة تنمّ عن تهديده بعزمه على عدم زيارة الإمام عليه السلام أبداً في حال لم يستجب له!!

قال: فتأثّرت لذلك المشهد كثيراً، وهالني هذا الأسلوب الفضّ في التكلّم مع سيد الأوصياء وأمير المؤمنين، وأردت أن أعاتب الرجل وأؤنّبه عما بدر منه، ولكني أحجمت عن ذلك وقلت في نفسي إن الإمام عليه السلام قد سمع ما قاله الرجل، وهو كفيل بردّه أو مسامحته!

ثم عدت بعد أسبوع من هذه القضية، وبينما كنت مستمرّاً في

توسّلي بالإمام عليه السلام ليدلّني على ما سألته سابقاً، إذ رأيت الرجل القرويّ نفسه وقد بدت عليه أمارات السرور، وهو يكيل للإمام عبارات المدح والثناء بأسلوبه الخاص، وكأنّ الإمام قد قضى له بإذن الله حاجته. فاستعظمت الأمر في نفسي، وتعجّبت من سرعة الإجابة لهذا الرجل القرويّ في شأن من شؤون الدنيا، بينما أتعرّض للإهمال وأنا الذي قد نويت الدفاع عن حقّ أهل البيت عليهم السلام.

ثم عدت إلى البيت ولم أتناول الطعام وقد هجرني النوم واضطربت لذلك اضطراباً شديداً.

وحينما أصبح الصباح وجلست إلى أوراقي لكي أكتب شيئاً، والضجر يملأني، جاءني ابني ليقول لي: بأن رجلاً كان جاراً لنا قديماً حيث كنا نسكن في منطقة أخرى يريد رؤيتي. فأمرته بأن يسمح له بالصعود إلى غرفتي.

وحينما استقرّ به المكان قال لي: إن سبب زيارتي لكم هو أننا انتقلنا إلى بيت آخر، قبيل انتقالنا وحين انشغالنا بتنظيف البيت رفعتُ ولدي إلى أحد الرفوف لينظّفه، ففعل ذلك، وعندما نزل، نزل بكتاب قديم

وجده هناك، ولما كنت لا أعرف القراءة والكتابة رأيت أن آمره بوضعه في مسجد المنطقة ليستفيد منه الآخرون، ولكنني غيّرت رأيي حينما تذكّرتك وقرّرت أن آتيك به دون غيرك.

فتناول منه الكتاب وفتحه، فرآه نفس الكتاب الذي استغرق في البحث عنه أكثر من ستة أشهر، فأسقط في يديه، وتأكّد من استجابة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لطلبه، ولكن بعد مدة.

لابدّ لسائل أن يسأل عن السبب في تأخير الإستجابة، خصوصاً والإمام قادر – بإذن الله تعالى – على الإجابة الفورية لكل سائل من سائليه أو المتوسّلين به إلى الله تعالى، لاسيما وأن الرجل قد رأى مقدار السرعة في استجابة الإمام لطلب ذلك القرويّ، رغم ما بدر منه من عبارات غير لائقة؟!

فلا نجد من الإجابة الشافية سوى التذكير بقول الله تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾[1] بمعنى أن لكل امرئٍ امتحانه وبلاءه ليثبت جدارته ويرفع من منزلته عبر

(١) العنكبوت/ ٢

الاستمرار في الطاعة والإلحاح في الدعاء الذي هو عبارة عن وسيلة لتوطيد علاقة العبد بالمعبود من ناحية، وأخرى لكي يشمل المعبود عبده بمزيد من العطف والرحمة ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾[1].

ومن هنا، نشير إلى ضرورة اقتناص الفرص الطيبة للإستزادة من العبادة والطاعة، لاسيما في أيام شهر رجب الأصب وشهر شعبان المعظم وشهر رمضان المبارك، ليكرّس فيها المرء كلّ ما يملك من قوة لوعي العبادة وممارستها حقّ الممارسة، بالإضافة إلى مواصلة مهمّة محاسبة النفس، كما أمرت بذلك الأحاديث والروايات الشريفة التي نقلها كبار علمائنا في كتبهم.

فقد ورد عن أهل البيت صلوات الله عليهم أن الله الكريم الوهاب يجزي عامل الصالحات والمحاسب لنفسه من الجزاء - خاصة في هذه الأشهر، ومنها رجب الأصب «**الذي تُصبُّ فيه الرحمة والبركة على رؤوس العباد صبّاً**» - ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ.

(١) الفرقان/ ٧٧

ثم إن الورع عن محارم الله وما يستدعي ذلك من معرفة المحرمات واجتنابها من الأمور الموصى بها في هذه الأشهر خاصة، الأمر الذي يشدّد فيه على وجوب الاستمرار في أداء الطاعات، ليقلّل فاعلها من احتمال أو نسبة الحسرة على نفسه أمام الله تعالى وأهل بيت النبوةﷺ في يوم القيامة بعد ما يرى ما سيناله المتّقون مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وهـذا كلّه موكول للخروج من الإمتحان الإلهي بنجاح.

الفهرس

المقدمة.....(١)

الحلقة الأولى.....(٣)

الحسد.....(٥)

الحلقة الثانية.....(١١)

إبدال أهل الصلاح الى ثقة.....(١٣)

الحلقة الثالثة.....(١٩)

الدعاء دعوة للعمل.....(٢١)

الحلقة الرابعة.....(٢٩)

التزكية.....(٣١)

الحلقة الخامسة.....(٣٧)

نصرة الأقربين.....(٣٩)

الحلقة السادسة.....(٤٥)

القصاص.....(٤٧)

الحلقة السابعة.....(٥٣)

قصة معبرة.....(٥٥)

الحلقة الثامنة.....(٦١)

الظلم والمخاصمة.....(٦٣)

الحلقة التاسعة.....(٦٩)

الإضطهاد.....(٧١)

الحلقة العاشرة.....(٧٧)

ترويض النفس وخداعها.....(٧٩)

الحلقة الحادية عشرة.....(٨٧)

الطلب في الدعاء.....(٨٩)

الحلقة الثانية عشرة.....(٩٥)

من يبسط العدل.....(٩٧)

الحلقة الثالثة عشرة.....(١٠٣)

ضم أهل الفرقة.....(١٠٥)

الحلقة الرابعةعشرة.....(١١١)

إصلاح ذات البين.....(١١٣)

الحلقة الخامسة عشرة.....(١١٩)

ستر العائبة.....(١٢١)

الحلقة السادسة عشرة.....(١٢٩)

لين العريكة.....(١٣١)

الحلقة السابعة عشرة.....(١٣٧)

خفض الجناح.....(١٣٩)

الحلقة الثامنة عشرة.....(١٤٥)

الحكمة.....(١٤٧)

الحلقة التاسعة عشرة.....(١٥٥)

حسن السيرة وسكون الريح.....(١٥٧)

الحلقة العشرون.....(١٦٣)

المنافقين.....(١٦٥)

الحلقة الواحدة والعشرون.....(١٧١)

طيب المخالقة.....(١٧٣)

الحلقة الثانية والعشرون.....(١٧٩)

سيرة آل البيت عليهم السلام .....(١٨١)

الحلقة الثالثة والعشرون.....(١٨٧)

قول الحق.....(١٨٩)

الحلقة الرابعة والعشرون.....(١٩٥)

تكملة قول الحق.....(١٩٧)

الحلقة الخامسة والعشرون.....(٢٠٥)

الخير والشر.....(٢٠٧)

الحلقة السادسة والعشرون.....(٢١٧)

معادلة بين الخير والشر.....(٢١٩)

الحلقة السابعة والعشرون.....(٢٢٧)

دوام الطاعة.....(٢٢٩)